روايات مصرية للجيب

ملف المستقبل
سري جدًّا !!

154

الزئبق الجاف

د. نبيل فاروق



فى مكان ما من أرض (مصر) ، فى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرّية مطلقة ، من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

1ـ ضياع ..

« تمَّ محو المشكلة من الوجود يا سيادة الرئيس .. »

تلقّى رئيس الجمهوريةِ الرسالة الصوتيّة ، عبر جهاز اتصاله الخاص المؤمّن ، فانعقد حاجباه ، وتطلّع فى صمت إلى القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، والذى بدا من الواضح أن الألم يعتصره بشدة ، وهو يغمغم :

ـ رباه ! (نور) وفريقه .

تمتم رئيس الجمهورية بدوره ، فى خفوت شديد :

ـ لم تكن هناك وسيلة أخرى لدرء الخطر .

نطقها ، والذاكرة تنطلق بكليهما إلى ذكرى قريبة .. قريبة للغاية ..

إلى تلك اللحظة ، التى بدأ فيها كل هذا التوتر ، عندما اختفى عالم الأنثروبولوجيا الدكتور (أنور شعبان) ، مع فريق بحث محدود ، داخل كهف غامض ، فى أحد جبال (سيناء) ..

اختفوا ، دون أن يتركوا خلفهم أدنى أثر ..

على الإطلاق ..

وكان من الطبيعى أن يتم إسناد مهمة البحث عنهم ، إلى أقوى فريق علمى ، فى الإدارة كلها ..

فريق (نور) ..

ومنذ اللحظة الأولى ، لم يشعر (نور) بالارتياح قط ، لهذه المهمة بالذات دون أن يحدّد فى أعماقه سببًا لهذا ..

ومنذ هبطت بهم الحوّامة ، فى الوادى الذى يتوسط الجبال الثلاثة ، حيث يقع ذلك الكهف الغامض ، تضاعف شعوره بعدم الارتياح ..

ألف مرة ..

عبارة واحدة ، تركها الدكتور (أنور) خلفه ، كانت تثير فيه كل هذه الانفعالات العجيبة ..

عبارة قال فيها : « إن ما يراه ينتمى إلى سلسلة تطوّر مختلفة .. »

وهذا يعنى أن ما رآه ، داخل ذلك الكهف ، قبل أن يختفى ، شىء غير ما اعتاد رؤيته ، فى أى مكان فى العالم ..

بل ولا يشبهه حتى ...

لقد رأى شيئًا ينتمى إلى حضارة أخرى ..

أو على حد قوله ، سلسلة تطوّر مختلفة ..

والعبارة كانت تضع أمام (نور) عشرات الاحتمالات ..

أو أكثر .. بكثير ..

فهى قد توحى بحضارة لا أرضية ..

أو لا بشرية ..

أو حتى لا مادية ..

كل الاحتمالات كانت واردة ، خاصة وأن الدكتور (أنور) لم يحاول ترك أى تفسير لعبارته ..

واختفى مع فريقه ..

وهناك ، عند تلك المنطقة الغامضة ، واجه (نور) وفريقه أهوالاً تفوق الوصف ..

وتوصلوا إلى حقائق مدهشة ..

فالكهف ، وكل ما به ، لا يشبه إطلاقًا طبيعة المنطقة المحيطة به ..

بل ولا ينتمى إليها حتمًا ..

ثم إنه لم يكن هناك من قبل ..

كل الخرائط القديمة ، وحتى الحديثة ، لم تشر إلى وجوده قط ..

وهذا يضيف لغزًا جديدًا ..

ومخيفًا ..

ثم اختفى (أكرم) ..

اختفى فجأة ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ..

وتبعه (رمزى) ..

وتضاعف توتر (نور) ، ألف ألف مرة ..

وبمبادرة شجاعة ، قرّر أن يقتحم ذلك الكهف الرهيب ، ليكشف أسراره ، ويبحث فى خباياه عن رفيقيه ..

وهناك ، واجه (نور) أغرب تجربة فى حياته ..

وأعنفها ..

وأخطرها ..

وفى الوقت ذاته ، كان خبراء مركز الأبحاث العلمية يحذرون من أن تلك المنطقة ، توشك على التهام (مصر) كلها كبداية ، والعالم كله فيما بعد ..

ولم يكن هناك سوى حل واحد ، لتفادى ذلك المصير البشع ..

نسف المنطقة كلها ، بقنبلة نووية محدودة ..

بل محوها محوًا ..

ولكن الاتصال بـ (نور) وفريقه لم يكن ممكنًا ..

والخطر كان يتزايد ..

ويتزايد ..

ويتزايد ..

ولم يعد من الممكن الانتظار ..

ولا حتى لإنقاذ (نور) ورفاقه ..

وبقلوب يدميها الألم ، وشجاعة لا تتوافر إلا للقادة ، أصدر الرئيس قراره بنسف المنطقة كلها ، حتى ولو اضطر للتضحية بأعظم رجال مخابرات عصره ..

المقدّم (نور) ..

وبينما يقاتل (نور) ، داخل ذلك الكهف الرهيب ، ويجاهد لمقاومة سائل عجيب ، أحاط به من كل صوب ، ويستبسل للخروج من مأزقه ، كان الموقف خارج الكهف يشتعل ..

ويتطور ..

وعلى نحو بالغ الخطورة ..

ثم خرج (نور) ، مع عينة من ذلك السائل ..

وكانت في انتظاره مفاجأة ..

مفاجأة رهيبة ..

إلى أقصى حد ..

زوجته وابنته أيضًا اختفيتا ..

كل رفاقه أصبحوا مفقودين هناك ..

عند ذلك الكهف الرهيب ..

وتضافرت كل العوامل ، لتضرب (نور) في مقتل ..

رفاقه مفقودون ..

ظاهرة غامضة تواجهه ..

والطائرات تستعد لقصف المنطقة كلها ، بقنبلة نووية محدودة ..

ولم يكن هناك أمل في النجاة ..

أدنى أمل ..

ولسبب مجهول ، لا يمكن وصفه ، أو إيجاد أي منطق مقبول له ، بدا لـ (نور) أن الأمل الوحيد ، في نجاته من ذلك الانفجار النووي الوشيك ، يكمن هناك ..

في قلب ذلك الكهف الغامض ..

وبلا تردُّد ، ولأنه ليس لديه ما يخسره ، انطلق (نور) مباشرة نحو الكهف ، والطائرات تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ثم هوت القنبلة النووية على المكان ..

ودوى انفجار رهيب ..

انفجار ، محا المنطقة كلها من الوجود ..

بكل ما عليها ..

ومن عليها(*) ..

(★) راجع الجزء الأول (المفقودون) ... المغامرة رقم (153) .

لقد قضى الأمر ، على الرغم من أن الخطر قد زال بالفعل ، قبل أن تسقط القنبلة بدقيقتين كاملتين ..

و .....

« كان ينبغى أن نوقف هذا بأى ثمن .. »

نطقها القائد الأعلى للمخابرات العلمية فى مرارة ، وهو يضرب قبضته اليمنى فى راحته اليسرى ، فأشار الرئيس بيده ، مغمغمًا فى أسى :

ـ سبق السيف العزل .. لم تكن هناك وسيلة لمنع هذا قط .

ثم اعتدل فى مقعده ، وأضاف ، محاولاً استعادة حزمه ، وطبيعته القيادية الحاسمة :

ـ ولم تكن أمامنا وسيلة أخرى كما تعلم .

غمغم القائد الأعلى :

ـ ربمـــا .

ثم نهض ، مضيفًا فى مرارة :

ـ وعلى أية حال .. لقد قلتها يا سيادة الرئيس .. سبق السيف العزل .

بدا وكأنه يهم بالانصراف مع نطقها ، فأشار إليه الرئيس بالانتظار ، وهو يسأله فى قلق :

ـ متى سيمكننا التيقن من النتائج ؟!

توقف القائد الأعلى ، محاولاً إزاحة مشاعره جانبًا ، وتصفية ذهنه لدراسة طبيعة الموقف ، قبل أن يجيب :

ـ آثار القنبلة النووية المحدودة ستحتاج إلى عشرين ساعة ، قبل أن تنجلى ، وتصبح المنطقة آمنة للفحص ، وعندئذ ، سنرسل فريق بحث .

سأله الرئيس :

ـ وماذا عن صور الأقمار الصناعية ، والأشعة دون الحمراء ؟!

مطّ القائد الأعلى شفتيه ، مغمغمًا :

ـ فى وجود التأثير النووى المحدود ، لايمكننا استخدام هذا أو ذاك .

التقط الرئيس نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ هذا يعنى إذن أننا ، ولمدة عشرين ساعة كاملة ، سنظل كالعميان ، حتى تنجلى تلك الآثار .

زفر القائد الأعلى فى توتر أكثر ، وهو يقول :

ـ للأسف يا سيادة الرئيس .. سنظل كذلك ، طوال الساعات العشرين القادمة ، وسنظل كالضائعين ، نسأل أنفسنا .. ترى كيف انتهى الأمر ؟! كيف ؟! كيف ؟!

وبدا له ، وهو ينطقها ، أن سؤاله ظلّ معلقًا فى سماء حجرة مكتب الرئيس ..

بلا صدى ..

وبلا جواب ..

على الإطلاق ..

* * *

الانفجار كان رهيبًا ..

عنيفًا ..

ساحقًا ..

فلقد سقطت القنابل النووية المحدودة ، فى ذلك الوادى ، بين الجبال الثلاثة ، فى قلب (سيناء) ، حيث نصب فريق (نور) خيامه ، ووضع كل معداته المتطوِّرة ..

ومع الانفجار ، انسحق كل هذا سحقًا ..

لم يتطاير حتى فى الهواء ، وإنما تحوّل فى لحظة واحدة إلى حطام ..

وشظايا ..

وغبار ..

الجبال ظلت صامدة ، إلا أن معالمها تغيَّرت تمامًا ..

صخورها احترقت ..

وذابت ..

وتحطمت ..

وتفجَّرت ..

كهوفها انسحقت ، وأغلقت ، وطمرتها أطنان من الأحجار والغبار ..

وفى السماء ، تكوَّنت سحابة مخيفة قاتمة ، إثر انحسار ذلك الشكل المخيف ، الشبيه بفطر عش الغراب ، الناجم عن الانفجار النووى المحدود ..

ثم هطلت الأمطار على المنطقة كلها ..

أمطار حمضية ، نفاذة الرائحة ، غمرت المنطقة كلها ، وتصاعدت مع سقوطها أبخرة خفيفة ، توحى بتفاعلها مع التربة ..

أما ذلك الكهف الغامض ، فقد اختفى ..

اختفى من الوجود ..

تمامًا ..

وبدا من الواضح أن معالم المنطقة كلها قد تغيَّرت ..

وإلى الأبد ..

ولقد دوى ذلك الانفجار مرتين ..

مرة فى قلب الوادى ..

ومرة فى عقل (نور) ..

فى أعمق أعماق عقل (نور) ..

لقد تلقَّى اتصال القائد الأعلى ، الذى حذره من الانفجار ، بعد أن صدمه اختفاء زوجته وابنته ، عندما كان يكافح ذلك السائل العجيب ، فى أعماق الكهف الغامض الرهيب ..

وعلى الرغم من كل ما واجهه وعاناه ، تعلَّق بصره وفكره ، فى تلك اللحظة العصيبة ، بالشىء الوحيد ، والمكان الوحيد ، الذى ربما يحمل لمحة من الأمل ..

بالكهف ..

وبكل طاقته ، راح يتسلَّق الصخور ، حتى بلغ ذلك الكهف ، ووثب داخله .

وهوت القنبلة النووية المحدودة ..

ودوى الانفجار ..

ومع دويه ، شعر (نور) بارتجاج عنيف ، شمل كل خلية من خلايا مخه ، الرمادية والبيضاء ..

بل شعر وكأن مخه قد انفجر داخل جمجمته ..

ولجزء من الثانية ، تصورَّ أن هذا مفعول ذلك الانفجار النووى المحدود ، الذى حدث خارج الكهف ..

ثم انتبه فجأة إلى أنه ليس كذلك ..

فعبر مدخل الكهف ، رأى ذلك الانفجار يحدث فى الخارج ، كما لو أنه على شاشة سينما قديمة ..

نيران ، ودخان ، ولهب ، وصخور تتناثر ، وتتساقط ، وانفجارات ، وشظايا ..

ثم فجأة ، اختفى كل هذا ..

تلاشى المشهد فجأة ، كما لو أن آلة السينما التى تعرضه ، قد أصيبت بعطب مفاجئ ، وتحوَّل مدخل الكهف إلى ظلام داكن رهيب ..

وبعدها ساد صمت عجيب ..

صمت لايشبه أى صمت ، شعر به (نور) ، فى حياته كلها ..

صمت تام ..

كامل ..

مخيف ..

حتى حركة (نور) ، لم يعد لها صوت ..

أدنى صوت ..

وبسرعة مخيفة ، راحت الجدران كلها تفرز ذلك السائل الشبيه بالماء ، والذى أخذ يرتفع ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

وفى هذه المرة ، لم يحاول (نور) المقاومة ..

لم يبذل حتى أدنى محاولة ..

شىء ما فى أعماقه ، جعله يتصوَّر أنه قد مات بالفعل ، وأن كل ما يحيط به مجرد هذيان أنفاس أخيرة ..

وفى هذه المرة ، ارتفع السائل حتى صدره ..

ثم تجاوزه إلى عنقه ..

فذقنه ..

واقترب من فمه وأنفه ..

وهنا تلفَّت (نور) حوله ، وكأنما يبحث عن وسيلة للنجاة ، من ذلك السائل ، الذى كاد يغمره تمامًا ..

ولكن العجيب أنه لم يحاول الفرار من مكانه ..

فقط ظلَّ واقفًا ..

صامتًا ..

مستسلمًا ..

وتجاوز السائل فمه ..

وأنفه ..

وجبهته ..

ثم ارتفع فى لحظة واحدة ؛ ليبلغ سقف الكهف ..

ولم يعد هناك سنتيمتر واحد من الهواء ..

وأيضًا لم يحاول (نور) المقاومة ..

شىء ما كان يسيطر على عقله ، ويدفع فى أعمق أعماقه طمأنينة عجيبة ، وكأنما اعتاد هذا طوال عمره ..

وفى بطء ونعومة ، راح ذلك السائل يتموَّج ..

ويتموَّج ..

ويتموَّج ..

ومع تموجاته الدافئة ، انطلق عقل (نور) يطرح عشرات الأسئلة والاستفسارات ..

القاعدة العلمية البسيطة تقول : إن السوائل عندما ترتفع ، تزيح الهواء من المكان الذى تحتله تمامًا ..

فأين ذهب هذا الهواء ؟!

ومن أين جاء السائل ؟!

هناك حتمًا نظام دفع وطرد ، يحكم هذه اللعبة كلها ..

تمامًا كما يحدث فى الغواصات ..

نظام يطرد الهواء ، ويدفع السائل ، أو العكس ، وفقًا للموقف المنشود .. السؤال التالى إذن هو : ما الموقف المنشود ؟!

أهو صعود ..

أم هبوط ..

أم انتقال بين الأبعاد ..

أم بين الزمان والمكان ..

ما الذى يحدث بالضبط ؟!

ذلك الكهف منفصل حتمًا عما حوله ، وإلا لما بقى متماسكًا ، بعد قصف المنطقة بقنبلة نووية محدودة ..

إنه يعلم ، بحكم دراسته وعمله ، تأثير تلك القنبلة الرهيب ..

يعلم أنها قادرة على محو منطقة كاملة من الوجود ..

ولكنها لم تؤثر فى ذلك الكهف العجيب ..

توقف عن الاستطراد فى أفكاره فجأة ، عندما انتبه إلى أن السائل يغمره تماماً ، من سقف الكهف وحتى أرضيته ..

ولكنه لم يختنق !

لم يشعر بحاجة إلى الهواء ..

بل ولم يحاول حتى أن يتنفس !!

ردود الفعل المنعكسة التلقائية فى مخه ، لم تشعر بافتقار خلاياه إلى الأكسجين ، ولم تدفع رئتاه إلى العمل ..

وهذا يخالف قوانين الطبيعة ..

كل قوانين الطبيعة ..

وفى ذهنه ، لم يكن هناك سوى تفسير واحد لكل هذا ..

أن ذلك السائل لا يحيط به فعلياً ..

إنه وهم ..

مجرد وهم ..

إحساسه بالسائل ، وتغيراته ، ودفئه ، وكثافته ، كلها مجرد وهم ..

وهم ..

وهم ..

وهم ..

لم تكد .. تلك الفكرة تختمر فى رأسه ، حتى تغير قوام ذلك السائل فجأة ، فراحت كثافته تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

فى البداية ، أصبح أشبه بالزئبق ..

ثم كالهلام ..

وبعدها تماسك ، حتى لم يعد باستطاعة (نور) أن يتحرك ذراعيه أو ساقيه ، أو حتى يدير رأسه ..

عندئذ فقط ، شعر (نور) بتثاقل فى أنفاسه ، وراح يختنق ..

ويختنق ..

ويختنق ..

ومع اختناقه ، راح يقاوم فى عنف ، إلا أن ذلك السائل ، الذى بدا أشبه بالهلام الثقيل ، كان يكبل حركته تمامًا ..

ثم فجأة ، وبالسرعة نفسها ، راحت درجة حرارته تنخفض ، كما لو أنه يتعرض لوسيلة تبريد رهيبة ..

وخلال ثوان قليلة ، شعر (نور) أنه يتجمَّد ..

شعر بآلام مبرحة ، فى كل خلية من جسده ..

وحاول عقله أن يجد وسيلة للخلاص ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

إلا أن البرودة كانت تتزايد بسرعة مخيفة ، حتى تجمَّدت أطرافه كلها ..

وبعدها تجمَّدت مشاعره ..

وانفعالاته ..

وأفكاره ..

ثم ثبتت عيناه ، وكأنما فارقته روحه ..

وعند هذه المرحلة ، راح الضوء العجيب من حوله يخبو ..

ويخبو ..

ويخبو ..

ثم أظلمت الدنيا كلها ..

تمامًا ..

* * *

2ـ حضـــارة ..

الجميع كانوا هناك ..

سلوى ..

نشوى ..

وأكرم ..

ورمزى ..

وحتى الدكتور (أنور) وفريقه ..

الجميع كانوا هناك ، فى ذلك المكان العجيب ..

لم يكن يشبه أى شىء رآه (نور) ، فى حياته كلها من قبل ..

كانت هناك جدران مائية ، ترتفع لتصنع حواجز ، تخالف كل قوانين الطبيعة ..

جدران باردة كالثلج ..

أو أكثر برودة ..

وفى حذر شديد ، تطلّع (نور) إلى ما حوله ..

الجميع كانوا داخل فقاعات مائية ضخمة عجيبة ..

نائمين ..

أو فاقدى الوعى ..

أو ربما أمواتًا ..

لا يمكنه أن يجزم بأى شىء ، من موقعه هذا ..

ولكن لماذا بقى وحده حرًا ، بلا أية فقاعات تحيط به ؟!

لمـاذا ؟!

لمـاذا ؟!

تحرّك فى حذر ، ليتيقّن من أنه على حق ..

وكان على حق ..

لا توجد حوله أية فقاعات ..

وحده قادر على التحرُّك بحرية ، فى ذلك المكان العجيب ..

وبنفس الحذر ، نهض من رقدته ، وانتبه لأول مرة ، إلى أنـه كان يرقد فوق كتلة من ذلك السائل ..

كتلة متماسكة ، دافئة ، لينة ..

تمامًا كالزئبق ..

ولكنها شفافة تمامًا مثل الماء ..

تحسّس تلك الكتلة بيده ، وحاول أن يدفع أصابعه داخلها ، فاندفعت فى يسر وسهولة ، وتحوّل السائل من حولها إلى كرات متماسكة ، بفعل التوتر السطحى(*) ..

تمامًا كما يفعل الزئبق(**) ..

وبكل حيرته ، تساءل (نور) : أتلك الجدران السائلة أيضًا من النوع نفسه .. أرجأ هذا السؤال ، ليتجه فى لهفة إلى ابنته (نشوى) ، التى ترقد ساكنة ، داخل فقاعة كبيرة ، تسبح فى فراغ المكان ..

وللمرة الأولى ، انتبه إلى أن تلك الفقاعات ليست كروية ، كما يفترض فى أية فقاعة ، طبقًا لقاعدة التوتر السطحى نفسها ..

كانت بيضاوية الشكل ، شديدة المرونة ، كما لو أنها مصنوعة خصيصًا ، لتحتوى تلك الأجساد البشرية ..

(*) التوتر السطحى : مصطلح يطلق على الشد ، الذى يحدث فى سطح السائل ، نتيجة القوى الجزيئية العمودية عليه ، والتى تشده إلى داخل السائل ، وتجبره على أن يسلك سلوك الغشاء المشدود .

(**) الزئبق : عنصر فلزى ، يقع فى الصف الثانى من الجدول الدورى الحديث ، رقمه الذرى (80) ، ونقطة انصهاره (ـ38.87°م) ، ونقطة غليانه (356.8°م) ، وهو أثقل سائل معروف ، وهو العنصر الفلزى الوحيد ، الذى يصبح سائلاً ، فى درجة حرارة الحجرة .

ولكن هذا لم يكن يعنيه ، فى كثير أو قليل ..

كل ما اهتم به ، هو أن يلصق عينيه بسطح الفقاعة المرن ، لينظر إلى حركة صدر ابنته ..

ولثوان ، راح قلبه يرتجف ، قبل أن يدرك أنها تتنفس ..

إنهم ليسوا موتى إذن ..

وهذا كل ما يهم ..

انتقل بعدها إلى تلك الجدران السائلة ، التى ترتفع أمامه ، لتصنع دائرة ، تحيط بهم جميعًا ..

وتضاعفت دهشته مرة ..

بل ألف مرة ..

فالجدران السائلة ، كانت تموج بحيوية مدهشة ، كما لو أن ذلك السائل يجرى فيها ، من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، فى حركة متصلة لا تتوقف ..

ولقد أوحى إليه هذا بأن تلك الجدران ليست سائلة كما تبدو ..

ربما كانت جدرانًا زجاجية شفافة ، يجرى ذلك السائل بينها ، بفعل مضخات رأسية وسفلية ..

ولكن بصره لم يمكنه من تبيُّن هذا ..

لذا ، فقد مد يده فى حذر ، نحو أحد الجدران ، ولمسه بأطراف أصابعه ، و ....

وتراجع بحركة حادة ، كالمصعوق ..

لا توجد أية جدران زجاجية ..

او حتى غير زجاجية ..

لقد لامست أنامله ذلك السائل مباشرة ..

واتسعت عينا (نور) عن آخرهما ..

فما يراه أمامه ، كان يخالف كل قانون فيزيائى ، فى الكون كله ..

وهذا مستحيل !

مستحيل !

وألف مرة مستحيل !

تراجع محدقًا فى تلك الجدران المحيطة به ، فى توتر شديد ، ثم أدار عينيه فى المكان ، قبل أن يهتف فى عصبية :

- ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

بدا له أن صوته يتردد بصدى عجيب ، فى أعمق أعماق عقله ..

إلا أنه لم يبلغ أذنيه قط ..

لقد انطلق الهتاف فى داخله ، ولم يتجاوز قط شفتيه ..

تضاعف توتره ، مع إدراكه هذا ، وراح يتلفت حوله فى عصبية بالغة ، محاولاً أن يفهم شيئًا ، مما يدور فى ذلك المكان العجيب ..

ثم فجأة ، لاحظ ذلك الظل ، خلف أحد الجدران السائلة ..

ظلاً بشريًا ..

أو شبه بشرى ..

وتوترت كل ذرة ، فى كيان (نور) ، وهو يتطلع إلى ذلك الظل ، الذى راح يقترب ، من الجانب الآخر للجدار السائل ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ثم اخترق ذلك السائل ..

وتجمدت مشاعر (نور) لحظة ..

تجمدت مع أطرافه ، وهو يحدق في تلك البقعة من الجدار ، حيث تجمع السائل كله في منطقة الاختراق ، ثم تناثر في شكل كرات مختلفة الأحجام ؛ ليسمح لذلك الشخص بعبوره ..

واتسعت عينا (نور) ..

وعبر ذلك الشخص الجدار ..

وانتفض جسد (نور) بعنف ..

بمنتهى العنف ..

فذلك الذى عبر الجدار السائل ، كان شخصًا لا يمكن أن يتواجد في مثل هذا المكان ..

على الإطلاق ..

* * *

« هذا تطور غير طبيعى على الإطلاق .. »

نطق رئيس فريق العلماء العبارة ، فى توتر ملحوظ ، وهو يقف أمام القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتراجع فى مقعده ، متسائلاً :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

وضع العالم أمامه مجموعة من التقارير ، التى تحوى معادلات ومصطلحات علمية معقدة ، وهو يجيب بنفس التوتر :

ـ المفترض ، وفقًا لكل النظريات والقوانين العلمية ، أن تنحسر آثار القنبلة النووية المحدودة ، خلال عشرين ساعة تقريبًا ، وهذا أحدث ما توصل إليه العلم ، فى تحجيم الانبعاث الإشعاعى النووى ، الناجم عن القنابل المحدودة ، ولكن ما يحدث فى هذه الحالة ، هو أن الإشعاع ينحسر بسرعة تفوق هذا بكثير ..

اعتدل القائد الأعلى ، وهو يسأله :

ـ ألا يمكن أن تكون هناك أية عوامل ، يمكن أن ...

قاطعه رئيس فريق العلماء فى توتر ، دون أن ينتبه إلى ما فى مقاطعته من مجافاة للذوق والقواعد :

ـ لا توجد أية عوامل يا سيدى .. من الناحية التى أمكننا رصدها على الأقل .

ثم مال نحوه ، مضيفًا ، فى لهجة تحمل رنة عصبية :

ـ ثم إن سرعة الانحسار ، أكبر من أن يستوعبها أى عامل علمى معروف .

تساءل القائد الأعلى ، فى حذر ، لم يدرك هو نفسه مغزاه :

ـ كم سيستغرق هذا الانحسار ، وفقًا لملاحظاتكم ، ورصدكم ؟!

تردّد رئيس الفريق لحظة ، قبل أن يجيب ، فى عصبية شديدة :

ـ ساعة واحدة .

اتسعت عينا القائد الأعلى فى دهشة بالغة ، وكاد يثب من مقعده ، وهو يهتف :

ـ مستحيل ؟!

أومأ رئيس الفريق برأسه ، مؤكدًا إجابته السابقة ، فانعقد حاجبا القائد الأعلى فى شدة ، وتراجع فى مقعده ، مغمغمًا :

ـ كيف ؟! كيف يمكن أن يحدث هذا ؟! سرعة الانحسار ارتفعت عشرين ضعف سرعتها المعهودة !! ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

ارتجف صوت رئيس فريق العلماء ، وهو يقول :

ـ لا يمكن أن يعنى سوى أمر واحد .

وصمت لحظة ، ازدرد خلالها لعابه ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ هناك قوى ما ، تعمل على سحب النشاط الإشعاعى من المنطقة على نحو يفوق كل تقديراتنا وإمكانياتنا .

اتسعت عينا القائد الأعلى ، وانقبضت أصابعه فى توتر ، فتابع رئيس الفريق فى عصبية :

ـ وهذا يعنى أننا مازلنا نواجه تكنولوجيا شديدة التطوّر ، تفوق كل ما وصلنا إليه ، فى عصرنا هذا .

شعر القائد الأعلى بتوتر لا محدود ، وهو يتمنى لو يغوص فى مقعده ، أمام ذلك اللغز ، الذى مازال يواصل إرباك أعظم علمائه ، بعد أن فقد أخطر وأنجح فريق علمى ، فى (مصر) ..

بل فى العالم أجمع ..

وبعد دقيقة كاملة من الصمت ، اعتدل القائد الأعلى فى مقعده ، وقال :

ـ أريد تقريرًا عن تطوّر الموقف ، كل عشر دقائق ، وأريد أن يجتمع الكل لدراسة الظاهرة وتطوراتها ، والبحث عن الحلول اللازمة للتعامل معها .

واستعاد صوته قوته وصرامته ، وهو يضيف :

ـ سنرجئ كل الأمور الأخرى مؤقتًا ، ولنمنح هذا الموقف أولوية مطلقة .. أريد حسمه قبل أن تنتهى هذه الساعة .

تردد رئيس الفريق ، وتنحنح فى عصبية ، جعلت القائد الأعلى يسأله فى حدة :

ـ ماذا هناك أيضًا ؟!

تردد الرجل لحظة أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ الواقع أن دراساتنا قد استغرقت نصف الساعة تقريبًا ، و ...

قاطعه القائد الأعلى فى عصبية :

ـ وماذا ؟!

التقط رئيس الفريق نفسًا عميقًا وأجاب فى سرعة ، قبل أن يفقد شجاعته :

ـ ولم يتبق أمامنا سوى نصف الساعة فحسب ، وبعدها .. الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده يعلم ، ماذا سيكون مصيرنا !

وفى هذه المرة ، اتسعت عينا القائد الأعلى ، ولم يحر جوابًا .. أى جواب !

* * *

بمنتهى الذهول ، حدّق (نور) فى ذلك القادم ..

وبكل ما تفجّر فى أعماقه من انفعالات ، هتف :

ـ أنت ؟!

ثم انطلقت صرخة من أعمق أعماق حلقه ، مكملة :

ـ إذن ، فهو حلم .

ابتسم (محمود) ابتسامته العجيبة الهادئة ، وهو يقول :

ـ ليس حلمًا يا (نور) .. إنه أمر يتجاوز هذا بكثير .

غمغم (نور) ، وهو يدير عينيه مرة أخرى فيما حوله ، وكأنما يحاول التيقن من حقيقة ما يمر به :

ـ يتجاوزه ؟!

أومأ (محمود) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ الحلم يا (نور) هو تعبير عن صراع ما ، بين العقل الواعى والعقل الباطن ، ومحاولة لإصلاح ورتق مشكلات الواقع ، بأحلام وآمال المستقبل ، وهذا يعنى أنه فى مجمله ليس مرتبطًا بالواقع ، أو حتى بالمنطق .

أشار (نور) لما حوله ، وهو يقول متوترًا :

- وماذا عما حولنا هنا ؟!

اتسعت ابتسامة (محمود) ، وأشار بدوره إلى رأس (نـور) ، وهو يقول ، بصوت بدا شديد العمق :

- رؤيا يا (نور) .. اتصال عقلى بينى وبينك .. إنها وسيلتى الوحيدة ، للولوج إلى عقلك ، وإيصال رسائلى إليك .

سأله (نور) ، وقد غلب اهتمامه توتره :

- ولماذا دومًا ، فى مثل هذه الظروف ؟!

بدا ارتياح عميق ، فى صوت (محمود) ، وهو يقول :

- كان ينبغى أن أتوقع أنك ستتوصل إلى هذا ، بعقليتك العلمية البوليسية الفريدة ؛ فمن المدهش يا (نور) أنك واقعى للغاية ، وعلى الرغم من هذا ، فعقلك لديه قدرة نادرة ، على تخيل أمور وأوضاع ، قد لايدركها البشر فى حياته قط .

راح عقل (نور) يهضم تلك الكلمات ، ويديرها فى أعمق أعماق مخه ، وهو يقول فى حذر :

- الاتصال بينى وبينك له شروط ، وظروف مناسبة إذن .

غمغم (محمود) بصوته العميق :

- بالضبط .

تابع (نور) ، فى شىء من الحماس :

- وأهم شروط حدوث الاتصال ، هو أن أكون أنا فى حالة استرخاء تام ، أو غيبوبة عميقة ، فى حين تكون أنت قلقًا بشأننا .

أشار (محمود) بسبّابته ، قائلاً :

- تمامًا كما يحدث فى الاتصال العقلى الفائق ، بين من يمتلكون الموهبة من البشر يا (نور) .. ففى حالة الاتصال الفائق (التليباثى) ، يكون المرسل دومًا فى حالة انفعال ، أو (أدرينيرجيا) ، والمستقبل فى حالة استرخاء ، أو (كولينيرجيا) (*) .

التقى حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يتمتم :

- هو اتصال عقلى فائق إذن .

أشار (محمود) بسبّابته ، قائلاً فى حزم عميق :

- وليس حلمًا .

عاد (نور) يدير عينيه فيما حوله ، قبل أن يتساءل فى اهتمام بالغ ، امتزج بالكثير من التوتر والقلق :

- ولكن لماذا ؟! لماذا حدث هذا الاتصال يا (محمود) ؟! ما الذى يقلقك بشأننا هذه المرة .

(★) هذا ما تقوله الدراسات الخاصة بالاتصالات فوق العقلية (التليباثى) .

مال (محمود) نحوه ، وبدا صوته شديد العمق ، كما لو أنه يأتى من بئر سحيقة ، وهو يجيب :

ـ مستقبلكم .. مستقبلكم يا (نور) .

تراجع (نور) بحركة حادة ، مغمغمًا :

ـ مستقبلنا ؟!

مع قوله ، تبدلت ملامح (محمود) فجأة ، واكتست بألوان وظلال غير بشرية ، فاتسعت عينا (نور) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وانتفض جسده ..

انتفض بمنتهى العنف ، عندما انبعث من بين شفتى الواقف أمامه صوت معدنى آلى ، يقول :

ـ (س ـ 18) فى خدمتك يا سيّدى(*) .

فى تلك اللحظة فقط ، هبّ (نور) من رقاده ..

وبمنتهى الذهول ، حدّق فيما أمامه ..

(*) راجع قصة (المقاتل الأخير) .. المغامرة رقم (47) .

وارتطم بصره ، فى لحظة استيقاظه ، بذلك الوجه الأخضر ، والعينين الحمراوين ، والزى المميَّز ، فهتف بكل دهشته :

ـ (س ـ 18) .

كان يتوقَّع سماع تلك العبارة الوحيدة ، المسجلة فى برنامج (س ـ 18) ، بكل اللغات المعروفة ..

إلا أنه لم يسمع شيئًا ..

كان ذلك الواقف أمامه نسخة طبق الأصل من (س ـ 18) ، إلا أنه بدا جامدًا ساكنًا ، كتمثال من الصلب المطلى ..

ولثوان ، تجمَّد (نور) فى مكانه ، محدقًا فى نسخة (س ـ 18) ، قبل أن ينهض فى حذر ، ويقترب منه ، ثم يتحسسه بأنامله ..

إنه ليس (س ـ 18) حتمًا ..

صحيح أن له نفس الملامح ، إلا أنه ليس هو ..

بل ، إنه ليس حتى معدنيًا ..

ملمسه يبدو أشبه بملمس المخمل ، أو شىء من هذا القبيل ..

وفى توتر بلا حدود ، أدار (نور) عينيه فيما حوله ، محاولاً معرفة أين هو بالضبط ..

كان وسط قاعة كبيرة مظلمة ، إلا من البقعة التى كان يرقد فيها ، والتى يقف على مقربة منها شبيه (س ـ 18) ..

ولم يكن بإمكانه تحديد مصدر الضوء بالضبط ..

ولكن ما أفزعه بحق ، هو ذلك الفراش ، الذى كان يرقد فوقه ، منذ لحظة واحدة ..

إنه نفس الفراش ، الذى رآه فى رؤياه ، منذ دقيقة واحدة ..

فراش شبه سائل ..

شفاف ..

رقيق ..

دافئ ..

ومتماسك ..

أما باقى القاعة ، فقد كان مظلمًا تمامًا ، حتى إنه يستحيل عليه رؤية ما به ، ولولا الصدى ، الذى يصنعه صوته ، لما أدرك حتى اتساع القاعة ، أو عمقها ..

راودته فكرة أن يتحرك داخلها ؛ ليكشف ما تحويه ، إلا أنه لم يلبث أن تراجع ، خشية أن يتجاوز بهذا حدود الأمان ، التى لايدرى عنها شيئًا ..

ولدقيقة كاملة ، وقف فى مكانه ساكنًا ، يدير الأمور كلها فى رأسه ، قبل أن تملأ الصرامة ملامحه ، ويشد قامته فى وقفة عسكرية صارمة حاسمة ، ويقول بصوت مرتفع :

ـ حسنًا .. هأنذا هنا .. لقد انتصرتم .. وماذا بعد ؟!

سمع صدى صوته يتردد عدة مرات ، داخل القاعة الواسعة المظلمة ، فكرر بكل قوته :

ـ ماذا بعد ؟!

لثوان ، ظل صدى صرخته يتردد دون جواب ..

ثم فجأة ، أضيئت القاعة كلها ..

وبضوء مبهر للغاية ..

ضوء أغشى عينى (نور) لنصف دقيقة كاملة ، أصابه خلالها اضطراب شديد ، قبل أن ينفرج جفناه فى بطء ، ويتطلع إلى ما تحويه تلك القاعة ..

وعندئذ ، انتفض جسده فى عنف ..

فما رآه من حوله ، فى عالم الواقع ، كان نسخة طبق الأصل ، مما رآه فى رؤياه ..

الفقاعات بيضاوية الشكل ..

والجميع داخلها ..

الجميع بلا استثناء ..

وقبل حتى أن تكتمل انتفاضته ، انشق أحد الجدران السائلة أمامه ، وظهر من خلفه ذلك الشيء ..

وكانت الانتفاضة أكثر عنفًا هذه المرة ..

فذلك الشيء كان رهيبًا بحق ..

وإلى أقصى حد ..

* * *

3- الشـيء ..

كل شيء بدا عجيبًا محيِّرًا ، بالنسبة لفريق علماء مركز الأبحاث ، التابع للمخابرات العلمية المصرية ، وهم يحاولون سبر غموض ما يحدث هناك .. في قلب (سيناء) ..

فمع الانحسار السريع للإشعاعات النووية المحدودة ، من منطقة الهدف ، كانت كل وسائل رصدهم تستعيد قدراتها ، وترسل المزيد والمزيد من الصور والمنحنيات ، والمعلومات ..

ومع كل معلومة تصل ، كان الغموض يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

فعلى الرغم من أن القنابل النووية المحدودة قد سحقت المنطقة كلها ، إلا أن صور الأقمار الصناعية ، ونتائج المسح الحراري ، كلها تشير إلى أن ذلك الكهف ما زال هناك ..

لقد تغيَّر موقعه ، ليتناسب مع تغيُّر التضاريس ، إثر الانفجار العنيف ، إلا أنه بقي كما هو ، بلا تغيير ..

نفس المدخل ..

والاتساع ..

وتلك الصخرة الكبيرة ، التى تخفى مدخله ..

وكان هذا ينافى أى منطق ..

أى منطق على الإطلاق ..

ولأن النتائج لا يمكن تصديقها ، فقد أعاد فريق العلماء فحص المنطقة ، وأعاد حساباته كلها مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وفى كل مرة ، كان يحصل على النتائج نفسها ..

ذلك الكهف باق ..

مهما حدث ..

ومهما كانت الظروف ..

وبمنتهى اليأس ، غمغم رئيس فريق العلماء :

ـ هذا لا يصدّق ..

أشار أحد العلماء بيده ، قائلاً :

ـ ولكنه حقيقة ، تواجهنا ساخرة طوال الوقت .

قلب رئيس الفريق كفيه ، فى حيرة مستسلمة ، وهو يقول :

ـ المشكلة أنه ينبغى أن نقدم تقريرًا وافيا ، بآخر ما لدينا من نتائج ، إلى القائد الأعلى مباشرة ، خلال سبع دقائق فحسب .

قال عالم آخر فى حسم :

ـ فلنفعل إذن .

تردد رئيس الفريق لحظة ، ثم قال فى عصبية :

ـ هل سنخبره بهذا !؟

أجابه العالم ، فى حسم أكثر :

ـ سنخبره بما توصلنا إليه ، وسواء أرضاه هذا أم أزعجه ، فهى الحقيقة ، ومن الضرورى أن يعرفها كاملة ، غير منقوصة أو مزيّفة ؛ حتى يمكنه اتخاذ القرار المناسب بشأنها .

اندفع آخر يقول :

ـ هذا صحيح .. مهمتنا ليست إسعاد المسئولين ، ولكن تبصيرهم بحقائق الأمور .

تردد رئيس الفريق مرة أخرى ، ثم لم يلبث أن تنهّد ، قائلاً فى استسلام بائس :

ـ فليكن .

« مستحيل ! »

هتف القائد الأعلى بالكلمة فى ذهول ، وهو يطالع ذلك التقرير ، ثم رفع عينيه إلى رئيس الفريق ، هاتفًا فى استنكار :

ـ أتعنى أن ذلك الكهف لم يمس ؟!

أومأ رئيس الفريق برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى توتر :

ـ كما لو أنه لم يتعرض قط لما حدث يا سيدى .

كرّر القائد الأعلى :

ـ ولكن هذا مستحيل !

قالها ، ونهض من خلف مكتبه ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وبدا وكأنه غارق فى أفكار شديدة التوتر ، طوال دقيقتين كاملتين ، قبل أن يلتفت مرة أخرى إلى رئيس الفريق ، قائلاً فى حزم :

ـ من الواضح أن الأمر يتجاوز إذن حدود سلطاتى وقدراتى .. يتجاوزها بكثير .

واحتبست أنفاس رئيس فريق العلماء .. تمامًا ..

* * *

بانتفاضة قوية ، تراجع (نور) إلى الخلف ، وهو يحدّق فى ذلك الشىء ، الذى يتقدّم نحوه ..

وعلى الرغم من سعة اطلاعه ، وغرابة ما واجهه فى حياته ، وجد نفسه عاجزًا تمامًا عن توصيف ذلك الشىء ..

كان عبارة عن تكوين مائى ..

كتلة من السائل ، تتحرّك على نحو منتظم ، وتنبض بإيقاع واضح ، يؤكد أنها ، على الرغم من مظهرها .. حية ..

وخلال حركة ذلك الشىء ، كان يتشكّل فى أكثر من هيئة ، ويصدر منه صوت أشبه بخرير المياه ..

وتراجع (نور) أكثر ، وذلك الشىء يتقدّم نحوه ..

ويتقدّم ..

ويتقدّم ..

ثم توقف ذلك الشىء ..

توقّف بالقرب من منتصف القاعة ..

ومع توقفه ، توقَّف (نور) أيضًا ..

ولدقيقة أو يزيد ، ظلّ كلاهما جامدًا فى مكانه ، وكأنما ينتظران اللحظة المناسبة للتواصل ..

ثم فجأة ، راحت كتلة السائل تتخذ هيئة جديدة ..

وانتفض (نور) ، وتراجع خطوة أخرى حادة ، قبل أن يحدق فى ذلك الشىء بمنتهى التوتر ..

كانت كتلة السائل تتغيَّر ، وتستطيل ، وترتفع ، وتتخذ هيئة مألوفة بالنسبة لـ (نور) ..

هيئة بشرية ..

وخلال دقيقة واحدة ، أصبح أشبه بجسم بشرى سائل ..

وبدا الأمر أكثر مدعاة للدهشة والذهول ..

وفى توتر ، قال (نور) :

ـ فليكن .. لقد أثبت قدراتك .. ماذا بعد ؟!

فوجئ بالجواب يقتحم عقله ، بصوت أشبه بماء ينسكب :

ـ ماذا بعد .. إنك تفرط فى استخدام هذا المصطلح أيها المقدم !

اتسعت عينا (نور) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أهذا نوع من الاتصال العقلى الفائق ؟!

أجابه الصوت نفسه ، فى أعماق عقله :

ـ إنها وسيلة للتواصل أيها المقدّم ؛ فلغتنا تختلف عن كل اللغات المعروفة لديكم على السطح .

هم (نور) بإجابة العبارة ، إلا أنه لم يلبث أن توقَّف عند كلمة بعينها ، فقال فى دهشة متوترة :

ـ على السطح ؟! ماذا تعنى بهذا المصطلح ؟

صمت ذلك الشىء طويلاً هذه المرة ، ثم لم يلبث ذلك الصوت أن انسكب فى عقل (نور) ، قائلاً :

ـ من المؤكد أن ألف سؤال وسؤال يدور فى رأسك أيها المقدم ، فوفقًا لدراستنا ، أنت أكثر المجموعة ذكاءً وفضولاً .

تجاهل (نور) كل هذا ، وهو يكرِّر فى إصرار :

ـ ماذا تعنى بكلمة (السطح) هذه ؟!

كان ذلك الشىء أمامه يبدو مدهشًا للغاية ، مع تكوينه البشرى ، وملامحه المموَّجة بحركة السائل ، التى لا تتوقف لحظة واحدة ، من السريان فى التكوين بأكمله ، كما لو كان وعاءً زجاجيًا مفرغًا ، يحوى محركًا قويًا داخليًا ، يقلب السائل طوال الوقت ..

ولقد صمت الشيء طويلاً ، إثر تكرار (نور) لسؤاله ، وبدا وكأن حركة السائل داخله قد تضاعفت ، قبل أن يعود ذلك الصوت إلى عقل (نور) ، حاملاً لمحة صارمة :

ـ لست هنا لتطرح الأسئلة .

وهنا عقد (نور) ساعديه أمام صدره ، وقال في حزم :

ـ عظيم .. هذا يقودنا إلى السؤال التالى إذن .

وقسا صوته على نحو صارم ، وهو يضيف :

ـ لماذا نحن هنا بالضبط ؟!

كان يتوقع فترة انتظار وصمت أخرى ، إلا أنه فوجئ بالجواب يأتيه بسرعة ، عبر خلايا عقله :

ـ لتجيب أسئلتنا .

وعلى الرغم من بساطة الجواب ومباشرته ، شعر (نور) معه بشيء من الحيرة ، دعاه إلى الصمت ، وهو يحدق في ذلك الشيء ، محاولاً إعادة ترتيب أفكاره ، وفهم ما يدور حوله ..

أما ذلك الشيء ، فقد ظلّ هادئـًا ، صامتًا ، وكأنما ينتظر الجواب ، بكل الصبر والهدوء ..

ثم فجأة ، قال (نور) ، في شيء من الحدة :

ـ ما أنت بالضبط ؟!

أجابه ذلك الصوت المنسكب في عقله :

ـ وفقًا لمعلوماتنا ، كان ينبغى أن يكون التساؤل هو : من أنت ؟ وليس ما أنت ؟!

قال (نور) بمنتهى الحزم :

ـ كلا .. إننى أتساءل : ما أنت بالضبط ؟!

صمت ذلك الشيء لحظات ، ثم قال :

ـ لست أفهم ما تشير إليه .

بدا (نور) عنيفًا متحفزًا ، وهو يقول :

ـ بل أنت تفهم جيدًا ، ولكنك تراوغ لسبب ما ..

ثم اقترب منه في حزم مضيفًا :

ـ وأنا أبغض المراوغة بكل أحوالها ، وأفضل المواجهات المباشرة الواضحة .

ظلّ ذلك الشيء صامتًا ساكنًا ، و(نور) يقترب منه ..

ويقترب ..

ويقترب ..

كل ما حدث ، هو أن حركة السائل راحت تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

ومع تزايدها ، بدأ ذلك الشيء يتماسك أكثر ، في حين أخذت شفافيته تقل على نحو ملحوظ ، كما لو أنه يتحول من الحالة السائلة ، إلى حالة صلبة ، فقطع (نور) ما تبقى بينهما بقفزة واحدة ، ومد يده ليمسك ذلك الشيء ، قائلاً في صرامة :

- أخبرني ، ما الذي يحدث بالضبط ؟!

لم يكن قد أتم تساؤله ، عندما حدث فجأة أمر عجيب ..

عجيب للغاية ، حتى أن جسد (نور) كله قد انتفض بعنف وذعر..

بمنتهى العنف ..

ومنتهى منتهى الذعر ..

* * *

صمت رئيس الجمهورية طويلاً ، وهو يطالع تلك الصور ، المباشرة والحرارية التي تم رصدها ، من موقع الانفجار ، وركّز اهتمامه لدقيقتين كاملتين ، على ذلك الكهف ، الذي اكتفى بإبدال موقعه ، في المنطقة نفسها ، ثم لم يلبث أن أطلق من أعماق صدره زفرة ملتهبة ، وتراجع في مقعده ، قائلاً :

- من الواضح أننا نواجه أمرًا لا قبل لنا به ، ولن تجدى معه قواتنا .

قال القائد الأعلى في توتر :

- ولا يمكننا السكوت عنه أيضًا يا سيادة الرئيس .

أشار الرئيس بيده ، قائلاً :

- وماذا يمكننا أن نفعل ؟!

لم يجد القائد الأعلى جوابًا للسؤال ، فاكتفى بالتلويح بذراعيه ، وهو يتجه نحو منتصف الحجرة ، ثم لم يلبث أن غمغم :

- لهذا كنا نحتاج إلى (نور) وفريقه .

قال الرئيس في عصبية :

- من المؤكّد أنه لدينا فرق علمية أخرى .

تنهّد القائد الأعلى ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد .

كان يريد أن يضيف أن أى فريق من فرق المخابرات العلميـة ، لن يقارن أبدًا بفريق (نور) ، إلا أنه احتفظ بهذا فى أعماقه ، وهو يقول :

ـ ولكن ما من فريق سيضيف المزيد لما لدينا ..

ثم التفت إلى الرئيس ، مضيفًا :

ـ سنرسل فرقة مسلحة .

تساءل الرئيس فى دهشة :

ـ وماذا يمكن أن تفعل ؟!

أجاب القائد الأعلى فى سرعة :

ـ لا شىء .

ومع تضاعف الدهشة ، على وجه الرئيس ، أكمل بنفس السرعة :

ـ التدخل العسكرى لن يكون مجديـا ، مع أمر كهذا ، نجهل تمامًا ماهيته وقدراته ، ولكن الفرقة ستحاصر المنطقة ، وستكون إشارة دائمة إلى أننا نتابع الموقف ، ونستعد لمواجهته ، و ....

لم يستطع إتمام عبارته ، فأطبق شفتيه ، وتطلع إلى الرئيس ، الذى انعقد حاجباه ، وراح يدير الأمر فى رأسه ، محاولاً فهم ما سيفضى إليه ..

وبينما يتطلعان إلى بعضهما البعض ، خيم عليهما صمت عميق ..

صمت حائر ..

مضطرب ..

ورهيب ..

* * *

رد فعل ذلك الشىء للمسة (نور) ، كان عجيبًا للغاية ..

فقبلها بلحظة واحدة ، كان كيانًا سائلاً ، يموج بالحركة المتصلة ، ويومض بضوء متغيّر مدهش ..

ثم لمسه (نور) ..

وفى لحظة واحدة ، تحوّل ذلك الشىء ، من الحالة شبه السائلة ، إلى الحالة الصلبة ..

ودفعة واحدة ..

وما أن لمسه (نور) ، حتى تحولّ فجأة إلى كتلة من التراب ، تساقطت أرضًا ، لتصنع كومة صغيرة ، عند قدمي رجل المخابرات العلمية ..

وبكل دهشته ، حدّق (نور) في تلك الكومة ..

فما حدث أمام عينيه ، كان يكسر كل قوانين الفيزياء المعروفة ..

ذلك الشيء تحولّ بقفزة واحدة ، من الحالة شبه السائلة ، إلى الحالة الصلبة ، دون المرور بأية مراحل وسيطة ..

شيء اشبه بعكس حالة (التسامى)(*) ، المعروفة فى الفيزياء الطبيعية ..

ثم تراجع (نور) ..

تراجع فى حذر شديد ، وعيناه معلقتان بكتلة الرمال ..

ولثوان ، ظلّ كل شيء ثابتًا جامدًا ، قبل أن تحدث فجأة ظاهرة أخرى ، أكثر إثارة للدهشة ..

فكتلة التراب تلك استعادت بغتة حالتها السائلة ، وأيضًا بقفزة واحدة ، ثم راحت تسرى على الأرضية اللامعة للمكان ، كما لو أن شيئًا ما يجذبها ، نحو تلك الجدران السائلة العالية ..

(*) التسامى : حالة تتحول فيها المادة ، من الحالة الصلبة ، إلى الحالة الغازية ، دون المرور بالحالة السائلة .

وعندما بلغتها ، امتزجت بها ، وتعاللت معها ، وأصبحت جزءًا منها ..

وعاد السكون يخيّم على القاعة كلها ..

وشعر (نور) بالرهبة ..

رهبة عجيبة ، سيطرت على كل حواسه ، وهو يدير عينيه فى تلك الفقاعات شبه الكروية ، التى تحوى أجساد رفاقه ، والقاعة الواسعة ، التى لايمكنه تحديد مصدر إضاءتها بالضبط ، والجدران السائلة ، دائمة الحركة ، التى تحيط بها وأدرك ، وربما للحظة الأولى ، أن ذلك الخرير العجيب ، الذى يصدر عن الجدران السائلة له إيقاع ما ..

إيقاع منتظم ، رتيب ، يضفى على القاعة كلها حالة عجيبة ..

حالة من الهدوء ، والوقار ..

والرهبة ..

وفى توتر بالغ ، هتف (نور) :

- إلى متى سيستمر هذا العبث ؟!

خُيّل إليه أن إيقاع ذلك الخرير قد تغيّر ..

أصبح أكثر عمقًا ..

وأقل سرعة ..

وحتى الحركة فى الجدران السائلة ، أبطأت على نحو ملحوظ ..

هناك شىء ما ، يفعله حديثه مع المكان ..

استجابة ما ، لنبرات صوته ، أو كلماته ..

أو ربما لأسئلته ..

والتوصُّل إلى معنى هذا يحتاج إلى تجربة ما ..

تجربة جعلته يقول فى حزم :

ـ ذلك الشىء ، الذى واجهنى منذ قليل ، لم يكن واحدًا منكم .

تغيَّر الإيقاع مرة أخرى ، فواصل (نور) ، وهو يتابع التغيرات بمنتهى الدقة والاهتمام :

ـ إنه شىء ما صنعتموه .. شىء أشبه بالرجال الآليين فى عالمنا .. أشبه بهذا .

استدار يشير إلى نموذج (س ـ 18) ، فتغير إيقاع الخرير أكثر وأكثر ، وراحت حركة الجدران السائلة تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

ومع تزايدها ، ارتفع حماس (نور) للتجربة ، وهو يضيف :

ـ إنه كما قلتم .. محاولة تواصل .. وسيلة للعبور إلى العقول مباشرة ، وهى ليست وسيلة جديدة ، بالنسبة لفريقى ولى .. لقد اختبرنا هذا أكثر من مرة ، ونعرف أنه الوسيلة المثلى ، للتواصل بين كائنات من عوالم مختلفة .

اقترب فى حديثه من نموذج (س ـ 18) ، وهو يتابع فى انفعال ، وعيناه مازالتا ترصدان التغيرات المتتابعة ، فى إيقاع الخرير وحركة السائل غير المنتظمة :

ـ حتى نموذج (س ـ 18) ، انتزعتموه من أعمق أعماق خلايا ذاكرتى ، ووضعتموه أمامى هنا ؛ لدراسة ردود أفعالى بشأنه .

وصمت لحظة مفكرًا ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ ربما لأنكم عجزتم عن فهمه ، أو ربط قدراته بمدى ما توصلنا إليه من تقنية .

تسارع إيقاع الخرير بشدة ، عند هذه النقطة ، وارتفع صوته ، حتى بدا أشبه بشلال منهمر فى المكان ، فى نفس الوقت الذى بدأ فيه ذلك السائل ، المكوّن للجدران ، يغلى على نحو مخيف ، وتنبعث منه أضواء مختلفة الألوان ، انعكست على وجه (نور) ، وعلى تلك الفقاعات شبه الكروية ، التى تسبح فى فراغ القاعة ، محتوية أجساد رفاقه ..

ولكن (نور) تابع بمنتهى الحزم :

- إنكم ترصدوننا منذ زمن طويل .. ذلك الكهف ، الذى قادنا إليكم ، ليس كهفًا حقيقيًا .. لهذا لم تكن صخوره متناسبة مع ما حولها .. إنه وسيلة انتقال .. وسيلة تنقل راصديكم ، أو وسائل رصدكم ، من عالمكم إلى عالمنا ، والعكس ..

تلاشى حزمه بغتة ، مع علامات اعتصار العقل ، التى بدت فى ملامحه وصوته ، وهو يتابع :

- صوت خرير الماء ، الذى سجلته أجهزتنا ، كان صوت تلك الأشياء ، التى ترسلونها للتواصل ، أو لجمع المعلومات ..

راح ذهنه يستعيد عدة مشاهد وأحداث بسرعة كبيرة ، وهو يواصل فى شىء من الشرود :

- وكان من الطبيعى ألا نعثر على أى أثر لها ؛ لأنها تمتلك تلك القدرة الفريدة ، على التحوّل من الحالة السائلة إلى الصلبة .. والعكس .. إنها تتحرك بانسياب السوائل ، وتتجمّد لتصبح صخورًا ، لايمكن تمييزها عن أية صخور طبيعية .

صمت فجأة ، وانعقد حاجباه ، وهو يعتصر عقله أكثر وأكثر ..

ومع صمته ، اتصل إيقاع الخرير ، حتى لم يعد خريرًا ، بل هديرًا قويًا ، وتألّقت الجدران السائلة ، وبدا وكأنها ستنفجر ، من حركة السائل العنيفة فيها ..

ولم يبد على (نور) أنه يشعر بكل هذا ، وهو يفكّر .. ويفكّر ..

ويفكّر ..

ثم فجأة ، تألّقت عيناه ..

تألّقتا ببريق مدهش ، يعرفه كل من تعامل معه من قبل ..

وفى حماس عجيب ، وحزم واثق شديد ، أشار بيده إلى تلك الجدران السائلة ، وهو يهتف :

ـ ولكنكم لم تأتوا من عالم آخر .. بل من عالمنا نفسه .. تمامًا كما قال الدكتور (أنور) فى أوراقه .. أنتم أتيتم من سلسلة أخرى من التطوّر .

وبدا صوته شديد الصرامة والحزم ، وهو يضيف :

ـ من تحت السطح .

مع قوله الأخير هذا ، قفز ذلك الهدير فجأة ، ليتحوّل إلى ما يشبه هزيم الرعد ..

ثم تفجرت تلك الجدران السائلة بالفعل ..

تفجّرت ، دون أن يتناثر السائل منها ..

ولا حتى نقطة واحدة منه ..

ومع انفجارها ، رفع (نور) ذراعه ليحمى وجهه وعينيه ، وعندما خفضها ، اتسعت عيناه عن آخرهما ..

فالتطوّر هذه المرة كان شاملاً ..

وعنيفًا ..

للغاية ..

* * *

4ـ تحت الاختبــار..

حلّقت تلك الحوّامات العسكرية الخمس ، فوق منطقة الهدف ، فى قلب (سيناء) ، وقال قائد حوّامة المقدمة ، عبر جهاز اتصال خاص ، يرتبط بالقيادة مباشرة :

ـ وصلنا إلى منطقة الهدف ، وننتظر أوامركم .

لم تمض لحظة واحدة من الصمت ، قبل أن يأتيه الجواب بمنتهى الحزم :

ـ نفـذ .

مع الأمر الحازم المقتضب ، هبطت الحوّامات الخمس فى ذلك الوادى الكبير ، بين الجبال الثلاثة ، وقبل حتى أن تلامس الأرض ، قفز منها الجنود ، وراحوا ينتشرون فى المنطقة ، وفقًا لخطة مسبقة ، وحمل كل منهم سلاحه فى تحفز ، وهو يتخذ موقعه ، فى حين راح فريق منهم يركب مجموعة من الأجهزة والأسلحة الثقيلة ، ويوجّهها إلى ذلك الكهف ، وقائد الفريق يجرى اتصاله بالقيادة ، قائلاً :

ـ تم اتخاذ المواقع المحددة .. كل الأسلحة وأجهزة الرصد فى موضعها .. فى انتظار الأوامر التالية .

مضت لحظات من الصمت هذه المرة ، قبل أن يأتيه الجواب في حزم :

ـ تمركزوا في مواقعكم ، حتى تصلكم أوامر جديدة .

قال قائد الفريق في حسم :

ـ عُلِمَ وينفَّذ .

أنهى الاتصال ، واستدار يلقى أوامره لرجاله ، الذين اتخذوا مواقعهم في حزم وتحفز ، وتوجهت كل آلاتهم وأجهزتهم وأسلحتهم نحو ذلك الكهف ، الذى بث في نفوسهم رهبة عجيبة ، على الرغم من جهلهم بكل تاريخه السابق الرهيب ..

ولدقائق طويلة ، ران على الجميع صمت مهيب ..

ثم فجأة ، التقطت الأجهزة صوتًا ، يأتى من داخل الكهف ..

صوتًا أشبه بهدير ..

هدير مياه تندفع في قوة ..

عبر الكهف ..

وفى توتر شديد ، تطلع الكل إلى ذلك الكهف ، وتحفزت كل حواسهم ، وصوت الهدير يرتفع ، ويقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ثم فجأة ، تدفَّقت المياه من ذلك الكهف في قوة ..

تدفقت ، كما لو أنها تأتى من بحيرة ضخمة كبيرة ..

وفى شدة ، انهمرت المياه من الكهف إلى الوادى ..

ونظرًا للأوامر المشدَّدة ، لم يتحرَّك أحد الجنود من مكانه ، والمياه تتدفق حولهم ، وتجرى بين أقدامهم ، وتملأ الوادى ..

ولكن أعصابهم أخذت تتوتَّر في شدة ، عندما راح منسوب الماء يرتفع ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

ومع ارتفاعه ، توترت أعصاب الجنود أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى عصبية ، أمسك قائد الجنود جهاز اتصاله الخاص ، ولم يستطع كبح ذلك التوتر الشديد فى صوته ، وهو يقول للقيادة :

ـ أمور عجيبة تحدث هنا .. المياه تتدفق من ذلك الكهف ، وتغمر الوادى ، وتكاد تغرق أجهزتنا كلها ، ولسنا ندرى من أين ، ولا كيف تأتى ..

مرّت لحظات ، قبل أن يأتيه صوت القائد الأعلى شخصيًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ حاول جمع عينات من ذلك الماء ، وأرسلها فورًا إلى مركز الأبحاث يا رجل .

نطق القائد الأعلى أمره هذا ، وهو يتحرّك فى مكتبه فى توتر شديد ، فأتاه صوت قائد الفريق ، وهو يقول ، فى صوت حمل رنّة فزع ، يندر أن يحملها صوت جندى محترف :

ـ سيّدى .. المياه ترتفع بسرعة مخيفة .. إنها ليست مياهًا بالمعنى المعروف .. إنها أكثر لزوجة ، و ....

وفجأة ، بتر قائد الفريق عبارته بشهقة قوية ، قبل أن ينقل جهاز الاتصال ، فى حجرة القائد الأعلى صرخته ، وهو يقول :

ـ رباه ! ما هذا بالضبط ؟!

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، فى توتر شديد ، وهو يلتفت إلى جهاز الاتصال فى انفعال ، هاتفًا :

ـ ماذا هناك يا رجل ؟! ماذا حدث ؟! ماذا يحدث عندك ؟!

نقل إليه جهاز الاتصال الخاص صرخات عديدة ، تمتزج فيها الدهشة بالذعر والألم ، فصاح مرة أخرى :

ـ ماذا يحدث عندك ؟!

ولكن جهاز الاتصال توقف عن البث فجأة ، قبل أن ينبعث منه ذلك الصوت العجيب المتصل ..

صوت خرير مياه ..

ومرة أخيرة ، صرخ القائد الأعلى :

ـ ماذا يحدث عندكم ؟! ماذا يحدث ؟!

وبخلاف صوت الخرير ، لم يحصل القائد الأعلى على جواب ..

أى جواب ..

* * *

« (نور) .. ماذا بك ؟! »

نطق (أكرم) السؤال وهو يبتسم ، ويلوّح بيده أمام وجه (نور) ، الذى انتفض ، وحدّق فيه بدهشة ، جعلت (سلوى) تتساءل فى قلق :

- ماذا هناك يا (نور) ؟! لماذا توقفت فجأة على هذا النحو ، وكأنك رأيت شبحًا ؟!

وغمغمت (نشوى) فى توتر :

- أبى .

أشار إليها (رمزى) بالهدوء ، وهو ينهض إلى (نور) ، قائلاً :

- مهلاً .. أظن الأمر يحتاج إلى متخصّص مثلى .

انتفض جسد (نور) مرة أخرى ، وهو يحدّق فيما أمامه ، فى ذهول شديد ..

فمنذ لحظة واحدة ، انفجرت تلك الجدران السائلة ، فرفع يده ليحمى وجهه من انفجارها بحركة غريزية ، وأغلق عينيه لحظة ..

لحظة واحدة لا غير ..

وعندما خفض ذراعه ، وفتح عينيه ، كان كل شىء قد تبدّل .. تمامًا ..

لم تعد هناك قاعة ..

أو جدران سائلة ..

أو فقاعات شبه كروية ..

ولكن كل رفاقه كانوا هناك ..

حوله ..

فى مقر الفريق ، داخل إدارة المخابرات العلمية ..

فى قلب (القاهرة) الجديدة ..

كل شىء كان كما عهده هناك ..

الآلات ..

والأجهزة ..

وشاشات الرصد ..

والخرائط الرقمية ..

ورفاقه ..

كلهم كانوا فى أماكنهم التى اعتادها ..

وبخير صحة وعافية ..

(سلوى) ..

و(نشوى) ..

و(رمزى) ..

و(أكرم) ..

كلهم التفوا حوله ، و(رمزى) يسأله فى اهتمام :

ـ أهى رؤيا ما يا (نور) ؟!

لم يجب (نور) سؤاله ، وإنما حدق فيه فى دهشة واضحة ، ثم نقل بصره إلى النافذة ، حيث السماء الصافية المشرقة من خلفها ..

وبكل ذعرها ، غمغمت (سلوى) :

ـ رباه ! ماذا أصابه ؟!

هزّ (أكرم) رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. كان يتحدث إلينا فى مرح ، منذ لحظة واحدة ، ثم فجأة أصابه ذلك الشرود والذهول .

اغرورقت عينا (نشوى) بالدموع ، وهى تتحسّس وجه والدها ، قائلة ، بصوت أقرب إلى البكاء :

ـ أبى .. ماذا أصابك ؟!

إنها ليست وهمًا ..

هذا أول ما جال بخاطر (نور) ، عندما شعر بأصابعها تتحسّس وجهه ، فمد يده بدوره يتحسّس وجهها ، وقاوم كل ما يشعر به من انفعالات جارفة فى أعماقه ، وذهول ما له من حدود ، وحاول أن يبتسم ، وهو يقول بصوت ، خرج على الرغم منه أجش مختنقًا :

ـ أنا بخير .

تطلّع إليه الجميع فى قلق أكثر ، وتحسّس (أكرم) مسدسه بحركة غريزية ، وهو يقول فى توتر :

ـ (نور) .. إنك تحتاج إلى إجازة طويلة .

تمتم (نور) ، وهو يبحث عن أقرب مقعد إليه :

ـ نعم .. أعتقد هذا .

تبادل الجميع نظرة متوترة ، مع بعضهم البعض ، قبل أن تقول (سلوى) فى حزم ، حمل نبرات جزعها على زوجها :

ـ سأتقدم بطلب إجازة فورًا .

أدار عينيه فى وجوههم بحيرة ، وحاول أن يستوعب ما حدث ، خلال تلك اللحظة الماضية ، ثم لم يلبث بصره أن توقف عند النافذة ، وراح يتطلّع إلى ذلك المشهد خارجها ..

كل شىء كما ألفه تمامًا ..

كل شىء ..

ولكن كيف ؟!

كيف انتقلت الأمور إلى هذه النقطة ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

تركّز بصره طويلاً على النافذة ، ورفاقه من حوله يتهامسون ، محاولين معرفة ما أصابه ، فى حين ظلّ هو صامتًا ..

شاردًا ..

ساكنًا ..

وفى جمود شديد ، تعلّق بصره بتلك النافذة ..

وراح عقله يعمل ..

ويعمل ..

ويعمل ..

ما يحدث هنا مستحيل !

مستحيل تمامًا !!

حتى الانتقال الآنى ، لا يمكن أن يتحقق بهذه السرعة ..

إنها مجرد لحظة ..

لحظة واحدة ، نقلته عبر الزمان والمكان ..

لحظة واحدة لا غير ..

توقّف تفكيره لحظة ، وهو يحدق فى تلك السحابة الشبيهة بالأرنب ، التى بدت فى الركن العلوى من النافذة ، ثم عاد يدير عينيه مرة أخرى فى المكان ، ليتيقن من أنه ليس وهمًا ..

وكان كل شىء كما عهده بالفعل ..

لذا ، فقد هزّ رأسه فى قوة ، مغمغمًا :

ـ هناك تفسير ما حتمًا .

لمس (أكرم) كتفه فى حذر ، وهو يسأله بمنتهى القلق :

ـ هل تحتاج إلى مساعدة يا صديقى ؟!

شعر (نور) بلمسته على كتفه ، فأدار عينيه إليه ، قائلاً :

ـ لست أعتقد أنه يمكنك مساعدتى ، فى هذا الشأن .

تحسّس (أكرم) مسدسه مرة أخرى ، وهو يتساءل فى حيرة :

ـ ولِمَ لا ؟!

لم يجب (نور) تساؤله هذه المرة ، وإنما اكتفى بزفرة متوترة ، وهو يعيد بصره إلى النافذة ، وإلى تلك السحابة الشبيهة بالأرنب ، فى الركن العلوى منها ، و ...

وفجأة ، انتفض جسده مرة أخرى ..

وانعقد حاجباه فى شدة ..

هذا ما كان يبحث عنه بالضبط ..

الدليل ..

الخطأ الخفى ، فى اللوحة كلها ..

« هذه السحابة ثابتة .. »

هتف (نور) بالعبارة فى حزم ، وهو يهب من مقعده بحركة حادة ، فتطلّع إليه رفاقه جميعهم فى دهشة ، وغمغم (رمزى) فى حيرة :

ـ ماذا تعنى بهذا يا (نور) ؟!

تجاهله (نور) تمامًا ، وبدا وكأنه لايتحدّث إلى أحد منهم ، وهو يقول فى حزم وانفعال :

ـ حضارتكم كلها نشأت تحت السطح ؛ لذا لم تتنبهوا إلى ذلك الخطأ .. السحب فى عالمى لايمكن أن تظل ثابتة فى موضعها أبدًا .. إنها تتحرك طوال الوقت ، بفعل عوامل شتى(*) .

تبادل رفاقه نظرة دهشة حائرة ، إلا أنه واصل تجاهلهم له تمامًا ، وهو يهتف ، متحدثًا إلى ما لا يرونه :

ـ هذا يعنى أنه ، على الرغم من التلامسات ، والشعور الواضح بها ، إلا أن كل هذا مجرد وهم .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يسمع فى وضوح أشبه بخرير الماء يقول بالعربية ، فى لكنة عجيبة :

ـ بل هو اختبار .

(*) حقيقة .

مع العبارة ، عاد كل ما حوله يتلاشى مرة أخرى ، لتعود تلك القاعة الواسعة الكبيرة ..

وفى هذه المرة ، كانت خالية تمامًا ..

خالية ، وشديدة الاتساع ..

بلا حدود ..

لم تكن هناك تلك الفقاعات شبه الكروية ..

ولا الجدران السائلة ..

أو حتى كومة الرمال ..

لم يكن هناك شىء على الإطلاق ..

فقط (نور) ، فى ساحة خالية هائلة ، ذات أرضية لامعة ، وفراغ بلا حدود ..

ولثوان ، ظل (نور) صامتًا ، يقاوم ذلك الارتباك ، الذى صنعته به تلك التحولات المتتالية ، ثم لم يلبث أن صرخ فى حدة :

ـ إلى متى ستتواصل هذه اللعبة السخيفة ؟!

كان لصرخته صدى قوى ، فى ذلك الفراغ الهائل ، إلا أن ذلك الصدى ، لم يكن قد تلاشى بعد ، عندما أتاه الجواب ، بذلك الصوت

الشبيه بخرير المياه ، والذى تردد فى المكان بنفس الصدى ، دون أن يمكنه تحديد مصدره :

ـ يبدو أنها قد بلغت نهايتها .

تلفت (نور) حوله فى توتر ، محاولاً تحديد مصدر الصوت ، قبل أن يهتف فى عصبية :

ـ ومتى نكشف الأوراق ؟!

أتاه الجواب فورًا :

ـ لم يحن وقت كشف الأوراق بعد .. صحيح أننا هنا ، من قبل أن تتواجدوا أنتم ، إلا أننا لم نبدأ فى استكشاف السطح إلا مؤخرًا جدًا .

توقف (نور) عند العبارات كلها ، وقال فى انفعال :

ـ هنا من قبل أن نتواجد ؟! استكشاف السطح ؟! ما الذى يعنيه كل هذا ؟!

أجابه الصوت فى خرير هادئ :

ـ المفترض أنه يمكنك استيعاب الأمر أيها المقدّم ، فوفقًا لدراساتنا ، وما أخضعناك له من اختبارات ، أنت أكثر أفراد مجتمعك ذكاءً ، وقدرة على استيعاب ما يفوق إدراك العامة ، ونحن ندرك جيدًا ما تعنيه مثل هذه المزية النادرة ؛ فالافتقار إلى الخيال يقف حائلاً

دومًا ، بين العقول والتطور ، وعجز الإنسان عن تخيل ما يفوق اعتياده ، هو السبب الرئيسي فى تأخر الكشوف العلمية دومًا .

قال (نور) فى عصبية :

ـ إنك لم تجب تساؤلى بعد .

أجابه ذلك الخرير فى هدوء :

ـ فى أعماقك تعرف الجواب جيدًا ، ولكنه يثير فزعك وقلقك ، لذا فأنت ترغب فى أن نؤكده لك فحسب .

قال (نور) ، فى عصبية أكثر :

ـ أهى مراوغة ، للفرار من الجواب ؟!

بدا وكأن ذلك الصوت الخريرى قد تجاهله تمامًا ، وهو يكمل قائلاً :

ـ ولكنه ضعف الخيال مرة أخرى .. ذلك الضعف ، الذى جعل علماءنا يقضون سنوات طوال ، متصورين أنه لا توجد حياة على السطح ، وهو الذى جعل الآلاف من مبدعينا ومفكرينا يؤكدون ، فى ثقة متناهية ، أننا صورة الحياة الوحيدة المتاحة ، وأن كل ما عدا هذا مجرد خيال .

امتقع وجه (نور) ، وهو يستمع إلى هذا ، وحاول عقله أن يجد تفسيرًا مختلفًا لما يراه ويسمعه ، إلا أن ذلك الصوت لم يمهله فرصة للتفكير ، وهو يواصل فى هدوء :

ـ حتى عندما بدأتم تجاربكم النووية ، وتفجيراتكم تحت الأرضية ، تم رصدها باعتبارها كوارث طبيعية ، نشأت عن تزحزح الصفائح الأرضية ، وتم بمنتهى العنف رفض كل النظريات ، التى عزت هذا إلى وجود كائنات عاقلة على السطح ..

غمغم (نور) بأنفاس مبهورة :

ـ إذن ، فأنتم هنا بالفعل ، من قبلنا ؟!

تابع الصوت ، وكأنه لم يسمع تعليقه :

ـ ثم تطورت علومنا ، وبدأنا برنامجنا الجديد ، الذى اعتمد على إطلاق بعض أجهزتنا إلى السطح ... وعندئذ أدركنا وجودكم .

كرّر (نور) ، فى انبهار أكثر :

ـ أنتم هنا قبلنا ؟!

ومرة أخرى ، تجاهله ذلك الصوت تمامًا ، وتابع :

ـ جنسكم كان مفاجأة كبيرة لنا .. ومخيفة أيضًا ، مع كل ما رصدناه من عنفكم ، وعدوانيتكم ، وحروبكم العنيفة ، مع بعضكم البعض ، دون مبرّر منطقى واضح .. وكان من الطبيعى أن نخفى هذا الكشف المدهش عن شعبنا ، حتى لا نثير موجة من الهلع والذعر ، إذا ما أدرك أنه هناك مخلوقات عاقلة ، لا يفصله

عنها سوى غلاف أرضنا ، وتتميز بنوازع استعمارية مسيطرة مجنونة .. وفى الوقت ذاته ، كان من الضرورى أن نعمل على دراستكم أكثر ، وأن نستوعب الاختلافات الجوهرية ، بين جنسكم وجنسنا .

قال (نور) بأنفاس متلاحقة :

ـ ألهذا كنتم تختطفوننا ؟!

هنا فقط ، توقف ذلك الصوت عن تجاهله ، وأجاب :

ـ بالتأكيد .. إن بشرتكم تختلف تمامًا عن بشرتنا ، وأجسادكم تحوى بعض المواد ، التى لاتعرفها أجسادنا ، ربما لتعرضكم إلى ذلك النجم الضخم الذى تطلقون عليه اسم الشمس ، والذى لسنا ندرى كيف تحتملون حرارته المباشرة ، كما أن تعامل أجسادكم مع الجاذبية يختلف عن تعامل أجسادنا معها ، على الرغم من تشابهنا فى التكوين الخارجى ، إلى حد كبير .

قال (نور) ، وقد غلب فضوله العلمى توتره :

ـ ولكن تكنولوجيتكم تختلف تمامًا عن تكنولوجيتنا .

أتاه الصوت ، مجيبًا :

ـ هذا أمر طبيعى ، فحضارتنا نشأت فى وسط مختلف تمامًا ، له معطيات لا تشبه معطيات وسطكم ، واختلاف الضغط والحرارة ، وقوة الجاذبية(*) ، أعطى المواد لدينا خواص فيزيائية ، تختلف عنها لديكم .

قال (نور) ، وصوته يحمل لمحة من اللهفة :

ـ مثل تلك المادة ؟!

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يجيب ذلك الصوت الخريرى :

ـ لو أنك تقصد (الزوريوم) ، فهو ليس من العناصر الطبيعية فى عالمنا أو عالمكم .. إنه عنصر صناعى ، توصل إليه علماؤنا ، منذ دورة زمنية كاملة لدينا ، ولم ندرس بعد كم تساوى من زمنكم الخارجى ، ولكنه ، لو أمكننا ترجمة المصطلح جيدًا ، نوع من العناصر الذكية ، التى نستخدمها فى صناعة تكنولوجيتنا الحديثة ، إذ أن جزيئاته لديها قدرة فريدة ، على التحول ، من الحالة الصلبة إلى السائلة ، وفقًا لما تتلقاه منا من إشارات ، كما أن قدرتها على التماسك لا تتأثر بحالتها ، مما يمكنها من التشكل فى أية هيئة ، أو وسط يحيط بها .

(*) الهبوط تحت مستوى سطح البحر ، يزيد من الضغط الجوى ، ومن قوة جذب الأرض ، كما أن الحرارة ترتفع تدريجيًا ، كلما اقتربنا من مركز الكرة الأرضية .

غمغم (نور) :

ـ معدن أشبه بالحرباء إذن(*) .

أجابه ذلك الصوت :

ـ لسنا نعرف ما هى الحرباء ، ولكن المعدن الوحيد ، الذى عثرنا عليه فى عالمكم ، ويتشابه فى تركيبه مع (الزوريوم) ، هو ما وجدناه فى بعض أجهزتكم ، وتطلقون عليه اسم (الزئبق) .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! ذلك الشىء لايشبه (الزئبق) فى هيئته أو خواصه مطلقًا .

حمل الصوت شيئًا من الخرير الساخر ، وهو يقول :

ـ أمر طبيعى ، فزئبقكم عنصر طبيعى ، أما (الزوريوم) ، فهو عنصر صناعى ذكى ، كما سبق أن أخبرناك .

كانت المعلومات أغزر من أن يستوعبها عقل (نور) بهذه السرعة ، فهتف فى توتر :

ـ مهلاً .. مهلاً .

(*) الحرباء : زاحفة صغيرة ، بطيئة الحركة ، تعيش على الأشجار ، فى (إفريقيا) وجنوب (آسيا) ، يتغير لون جلدها بانفعالاتها ، وتغير حدة الضوء ، ودرجة الحرارة ، وهى شائعة فى (مصر) فى الحدائق وتتغذى على الحشرات ، عيناها جاحظتان ، تديرهما فى كل الاتجاهات ، ولسانها يكاد يبلغ طول جسدها ، وتصطاد به الحشرات .

ثم أغلق عينيه فى قوة ، وهو يلوّح بيده ، وكأنما يخشى أن يفقد بعض ما استوعبه من معلومات ، قبل أن يفتحهما دفعة واحدة ، ويحمل صوته توترًا شديدًا ، وهو يسأل :

ـ ولكن مهلاً ! لماذا تخبرنى بكل هذا ، ما دمتم تسعون إلى إخفاء ما كشفتموه .

أجابه ذلك الخرير فى هدوء :

ـ لا ضير من إخبارك أيها المقدّم .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ فلن يعود أحدكم إلى السطح أبدًا .

وانتفض قلب (نور) فى عنف .

* * *

5 - اللغــز..

منذ نهاية الاحتلال(*) ، لم يشهد مركز الأبحاث ، التابع للمخابرات العلمية المصرية ، مثل هذا التوتر الانفعالى ، وكل علمائه تقريبًا ، يحاولون فهم واستيعاب ما حدث هناك ..

فى قلب (سيناء) ..

فعلى الرغم من انحسار أثر القنابل النووية المحدودة ، على نحو لا يقبل الشك ، لم تسجل آلات تصوير الأقمار الصناعية ، أو حتى آلات الرصد الحرارى ، أية لمحة إيجابية ، يمكن أن تفسر ما حدث ..

كان كل شىء يسير على ما يرام ، حتى بدأ تدفق المياه ، من ذلك الكهف الغامض الرهيب ..

ثم فجأة ، انقطعت كل وسائل الاتصال ..

كلها توقفت عن العمل ، دون مبرر منطقى واحد ..

فقط الاتصال الصوتى ظل مستمرًا ؛ لينقل حالة من الذعر ، ما لها من مثيل ، عبر موجات الراديو فائقة القصر ..

(*) راجع قصة (الاحتلال) ... المغامرة رقم (76) .

وبعدها عاد كل شىء للعمل ..

وعادت الأقمار الصناعية ، ووسائل الرصد الحرارى تنقل المشهد فى وضوح ..

وكان كل شىء في مكانه ..

فيما عدا فرقة الجنود ..

آلاتهم ظلت فى موضعها ..

وكذلك أسلحتهم ..

ولكن ما من بشرى واحد ..

كلهم اختفوا ..

ودون أدنى أثر ..

وكان هذا مذهلاً ..

ومحيرًا ..

ومربكًا ..

وبكل عصبية ، أشار القائد الأعلى إلى الشاشة الخالية ، وهو يسأل رئيس فريق العلماء :

- أين ذهبوا ؟!

هزَّ رئيس الفريق رأسه فى حيرة مرتبكة ، دون أن يحر جوابًا ، فتراجع القائد الأعلى ، دون أن يرفع عينيه عن الشاشة الخالية ، وقال فى حدة غاضبة :

- لا يمكننا أن نظل غارقين فى جهلنا بما يحدث ، على هذا النحو .. لا بد وأن نعلم شيئًا .. أى شىء .

ارتجف صوت رئيس الفريق ، وهو يقول :

- كل ما يمكننا الجزم به ، هو أن الأمور تتطوَّر .

التفت إليه القائد الأعلى بمنتهى القلق ، وهو يتساءل :

- تتطوَّر ؟!

أومأ رئيس الفريق برأسه ، قائلاً :

- بالتأكيد ، ففى البداية كان الأمر ساكنًا ، ثم تحوَّل إلى اختطاف غامض ، وبعدها إلى هجوم مباشر ، على فرقة مسلحة كاملة .

غمغم القائد الأعلى :

- هذا يندرج أيضًا ، تحت قائمة الاختطاف .

أشار رئيس الفريق بيده ، وهو يقول :

- لم يكن بهذا الوضع فى البداية .

التقى حاجبا القائد الأعلى ، وهو يفكِّر فى الأمر ، قبل أن يسأل ، فى قلق شديد :

- وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

تردَّد رئيس الفريق لحظة ، ثم اندفع يقول ، وكأنما حسم أمرًا ما :

- هذا يتوقف على السبب الرئيسى ، الذى تركوا من أجله الأسلحة والمعدات خلفهم .

ضاعف الجواب من قلق وتوتر القائد الأعلى ، وهو يسأل :

- ماذا تعنى ؟!

واصل رئيس الفريق اندفاعه ، وهو يجيب :

- فريقى لديه احتمالان فقط ؛ لتفسير هذا الأمر ، أولهما أن الوسيلة ، التى يستخدمونها ، لنقل الأجساد ، لاتصلح لنقل الأسلحة والمعدات ، مما يضطرهم إلى تركها خلفهم ، وثانيهما أنهم يتركون كل هذا خلفهم ؛ ليرسلوا لنا رسالة ما .

تساءل القائد الأعلى ، وتوتره يتضاعف :

- أية رسالة ؟!

أجاب الرجل فى سرعة :

- يريدون أن يخبرونا أن أسلحتنا ومعداتنا بدائية ، لا تعنى لهم شيئاً .

تراجع القائد الأعلى بحركة حادة ، واتسعت عيناه فى شىء من الارتياع ، وقد بدا له الاحتمال الثانى مخيفاً للغاية ..

أما رئيس الفريق ، فقد انخفض صوته ، وهو يضيف فى حذر :

- هذا هو الأرجح .

بدا صوت القائد الأعلى مختنقاً مبحوحاً ، وهو يسأله :

- ولماذا ؟!

التقط الرجل نفساً طويلاً ، وكأنما يحاول تهدئة ذلك الانفعال الجارف ، المستعر فى أعماقه ، قبل أن يجيب :

- لأن الدكتور (أنور شعبان) ومجموعته ، قد اختفوا فى البداية ، مع كل أجهزتهم ومعداتهم ، وهذا يعنى أن الغزاة ...

قاطعه القائد الأعلى ، وهو ينتفض هاتفاً :

- غزاة ؟!

تطلّع إليه الرجل فى توتر شديد ، وبدا وكأنه قد انكمش على نفسه ، وهو يجيب مضطرباً :

- ألا يبدو هذا لك واضحاً يا سيدى ؟! إنه رأى توصلنا إليه ، واتفقنا عليه جميعاً .. ما يحدث هو طليعة غزو ... غزو من عالم آخر ..

واتسعت عينا القائد الأعلى ..

إلى أقصى حد ..

* * *

« هل تسعون لإبادتنا ؟! »

ألقى (نور) سؤاله فى عصبية ، محاولاً للمرة الألف ، البحث عن مصدر ذلك الصوت الخريرى ، الذى يتحدّث إليه ، ومضت لحظة طويلة من صمت ثقيل ، قبل أن يسمعه يجيب :

- وجود محترفين مثلكم ، يهدّد وجودنا نحن بالفناء .

قال (نور) فى حدة :

- لذا ، فإفناؤنا هو الوسيلة الوحيدة ؛ لحمايتكم من الفناء .

مرّت لحظة صمت أخرى ، ثم أتى الجواب مقتضباً :

- لو اقتضى الأمر .

كان جوابًا مخيفًا ، جعل (نور) يدور حول نفسه ، وهو يهتف فى غضب وحدة :

- ومن قال إن هذا من حقكم ؟!

أتاه الجواب هادئًا :

- إنه حق الدفاع المشروع ، الذى تؤمنون به على السطح .

صاح (نور) :

- الدفاع عن من ، وضد من ؟! لو أنكم هنا من قبل أن نوجد نحن ، فلماذا لا يستمر كل منا فى مساره ، دون أن يدس أنفه فى شأن الآخر ؟! لماذا لا بد وأن ينزاح أحدنا ، ليفسح مجالاً لمن لا يمكن أن يشاركه مساحته .. نحن نحيا على سطح الكوكب ، وأنتم فى أعماقه ، أى أن كلينا يحتل مساحة ، لابد وأن نتعاون للحفاظ عليها ، لا أن نتقاتل لهدمها .

طال الصمت هذه المرة ، وكأن بعضهم يحاول استيعاب المنطق ، أو ترجمة حوار (نور) ، قبل أن يأتى الجواب ، بنفس الصوت الهادئ ، الشبيه بخرير منتظم :

- عجيب أن يتحدث أحد كائنات السطح بهذا المنطق ؛ فلو أنكم تؤمنون به ، لما كانت كل هذه الحروب والصراعات بينكم ، ولما اخترعتم وابتكرتم وطورتم كل أسلحة الدمار الرهيبة ، التى حاولتم مواجهتنا بها .. لقد فجرتم مادة شديدة الإشعاع فى المنطقة ، كانت تكفى لتلويث تربتها طويلاً ، ولولا أن تدخلنا بتكنولوجيتنا لسحب آثارها ، لما سلمنا من أمرها .. أهذه فكرتكم عن المحافظة على السطح الواحد ، الذى يضم كل الكائنات ؟!

لم يستطع (نور) مناقشته ، عند هذه النقطة ، وإنما عض شفته السفلى فى مرارة ، وهو يسترجع كل ما فعله الإنسان بأقرانه ، عبر قرون طويلة من القتال والصراع والتناحر ..

بل وكل ما ابتكره ، من أسلحة مدمرة شاملة وعنيفة ..

الآن فقط أدرك أن كراهيته للقتل والتدمير ، كانت شعورًا آدميًا طبيعيًا ، على الرغم من كل ما وجهه إليه العديدون ، من انتقادات عنيفة أو ساخرة فى هذا الشأن ..

ذلك الصوت ، أيًا كان مصدره ، على حق تمامًا .

كيف يمكن أن يطالب جنسًا بالإبقاء على جنس آخر ، وجنسه نفسه لا يبقى على بعضه البعض ؟!

كيف ؟!

وفي يأس آسف ، غمغم (نور) :

ـ ليس هذا هو الأسلوب الوحيد ، للتعامل مع الآخرين ..

سأله الصوت بنفس الهدوء :

ـ أي أسلوب تعنى ؟!

أجاب في مرارة :

ـ الهيمنة والسيطرة .. ليس من الضرورى أن يتم التعامل دومًا من هذا المنطلق .. هناك أيضًا التعايش ، والتكامل ، و ...

قاطعه الصوت فى حزم :

ـ والاستغلال .

لم يعلّق (نور) على القول ، فتابع الصوت بنفس الحزم :

ـ مشاهداتنا سجلت حالات عديدة ، تظاهر فيها بعضكم بالتعاون مع البعض الآخر ، ثم استغل هذا التعاون ؛ لاستنزاف كل موارده وخيراته ، وكشف كل أسراره ، وبعدها انقض عليه ، وسحقه سحقًا .

أطلق (نور) زفرة حارة ، قبل أن يقول :

ـ وأنتم تنوون سحقنا ، قبل أن نسحقكم .

أجابه الصوت فى هدوء :

ـ هذا يبدو عادلاً .

عضّ (نور) شفته السفلى فى مرارة ، ولم ينطق بحرف واحد ، إزاء هذه العبارة الأخيرة ..

فعلى الرغم من بغضه لهذا ، إلا أنه يعلم تمامًا ، كم هذا الحديث صادق ..

أول ما سيفعله مسئولو عالمه ، عندما يعرفون بأمر ذلك العالم السفلى ، هو أن يسعوا لمعرفة كل شىء عنه ..

ثم السيطرة عليه ..

وكما يحدث دومًا ، ستكون لديهم مبرّراتهم ..

حماية أمنهم القومى ..

وقاية عالمهم ، من خطر محتمل ..

أو حتى إضافة قوة وثروات جديدة ..

دائمًا هناك مبرّر ما ..

أى مبرّر ..

ولا يمكنه أن يعد صاحب ذلك الصوت ، أيًا كانت ماهيته ، بأن هذا لن يحدث ..

لا يمكنه أن يخدعه ..

ولكن الثمن سيكون غاليًا ..

حياته ..

وحياة كل رفاقه ..

ويا له من ثمن !

ولو أن هذا هو كل الثمن ، لما تردَّد لحظة واحدة فى دفعه ..

فمنذ التحق بالمخابرات العلمية المصريـة ، ومنذ كوَّن فريقـه هذا ، كان يـدرك جيدًا أنهم جميعًا ، قد وضعوا أرواحهم على أكفهم ، من أجل هذا الوطن ..

وأنهم مستعدون دومًا لمنحه حياتهم ، إذا ما كانت ثمنًا لرفعتـه ونصرته .. ولكن المشكلة أن استسلامه الآن ، يعنى أن يتعرَّض وطنه كله لأكبر خطر ..

بل أن يتعرَّض عالمه كله له ..

وهو لا يمكن أن يسمح بهذا ..

أبدًا ..

« أين الباقون ؟! »

شدّ (نور) قامته ، وهو يلقى السؤال فى حـزم ، لا يتفق مـع موقفه ، فصمت ذلك الصوت بضع لحظات ، قبل أن يتساءل بدوره :

ـ وما شأنك بهم .. لو أن مصيركم كلكم واحد ، فلمـاذا تنشغل بأمرهم ..

أجابه (نور) بمنتهى الحزم :

ـ لأنهم رفاقى ..

سأله الصوت فى اهتمام :

ـ أهذا مبرِّر كافٍ ، لتموت من أجلهم ؟!

شدّ (نور) قامته أكثر ، وهو يجيب :

ـ دون أدنى تردُّد .

فى هذه المرة ، طال صمت ذلك الصوتَ الخريرى الغامض ..

طـال ..

وطال ..

وطال ..

ثـم فجـأة ، أظلمت القاعة كلهـا ، وارتفـع فيهـا صوت أشـبه بهدير شلال قوى ..

وبحركة غريزية ، تراجع (نور) ..

فمع الهدير القوى ، تصوّر أن أطنانًا من المياه ستنهال عليه من كل صوب ، لتغرقه تمامًا ..

ولكن شيئًا لم يحدث ..

فقط تواصل ذلك الهدير لحظات ، قبل أن يتوقف بغتة ..

ومع توقفه ، أضيئت القاعة كلها دفعة واحدة ..

ارتفعت فيها عدة شهقات ..

ومع الانبهار بالضوء المباغت ، أغلق (نور) عينيه ، ثم فتحهما ، وهو يتساءل ما الذى سيجده هذه المرة ..

وكان ما وجده مفاجئًا هذه المرة أيضًا ..

مفاجئًا للغاية ..

* * *

حمل صوت القائد الأعلى كل توتره وقلقه وانفعاله ، وهو يقف أمام رئيس الجمهورية ، قائلاً :

ـ الأمر يزداد تعقيدًا فى كل لحظة ، والخطر يقترب أكثر وأكثر ، ولو أنها مقدمات غزو خارجى ، كما يتوقّع فريق علمائنا ، فلابد وأن نتحرك بأقصى سرعة ، وإلا فقدنا كل شىء .

تساءل رئيس الجمهورية فى توتر :

ـ وماذا بيدنا لنفعله ؟! لقد حاولنا منع ذلك الشىء ، الذى مازلنا نجهل ماهيته بالضبط ، ولكن كل وسائلنا وأقواها فشلت ، و ...

قاطعه القائد الأعلى فى توتر :

ـ ليس كل وسائلنا ، يا سيادة الرئيس .

حدّق الرئيس فى وجهه بدهشة ، وتساءل فى توتر :

ـ ماذا تبقى لنا ، بعد القنابل النووية المحدودة ؟! من المستحيل بالطبع أن تقصد القنابل النووية الشاملة ، أو الـ ....

مرة أخرى ، قاطعه القائد الأعلى فى انفعال :

ـ قنبلة الأعماق .

فى هذه المرة ، كانت دهشة الرئيس عارمة ، وهو يقول :

ـ قنبلة الأعماق ؟! لست أظنك تقصد استخدام قنبلة بحرية فى ....

وعلى الرغم من مجافاة هذا لكل القواعد ، دفع الانفعال القائد الأعلى إلى مقاطعة الرئيس للمرة الثالثة ، وهو يقول :

- لم أكن أقصد قنبلة الأعماق البحرية يا سيادة الرئيس ، وإنما تلك القنبلة الجبلية ، التى ابتكرها البريطانيون ، فى الحرب العالمية الثانية ؛ لبلوغ تلك الأنفاق ، التى بناها (هتلر) فى قلب جبال (ألمانيا) ، والتى طوَّرها الأمريكيون فيما بعد ، لتحفر الأرض ، وتنسف المخابئ تحت الأرضية ، فى حرب الخليج الأولى ، عام 1991م(*) ، ثم قمنا نحن بتطويرها مؤخرًا ، لتحمل رءوسًا نووية محدودة ، إلى أعماق كبيرة ، فى باطن الأرض .

تساءل الرئيس فى حيرة قلقة :

- وبِمَ ستفيدنا قنبلة كهذه ؟!

أشار القائد الأعلى إلى خريطة (مصر) ، التى تحتل جدارًا كاملاً ، فى مكتب الرئيس ، وقال :

- الفحص بالموجات فوق الصوتية الفائقة ، عبر الأقمار الصناعية ، كشف لنا حقيقة مدهشة ، بشأن ذلك الكهف الغامض ، ففى كل التقارير الأولية ، كان يحوى داخله شبكة ممرات معقدة ، تنتهى دومًا بجدار حائل على عمق مائة متر ، ولكن الفحص أثبت أن ذلك الجدار هو نهاية زائفة للكهف ، الذى يمتد فعليًا إلى مسافة كبيرة للغاية ، فى أعماق الأرض .

(*) حقيقة .

غمغم الرئيس مبهوتًا :

- أعماق الأرض ؟! وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

أشار القائد الأعلى بيده مرة أخرى ، وهو يجيب :

- ما اتفقت عليه آراء العلماء والخبراء ، وهو أن ذلك الغزو ، أيًا كانت ماهيته ، أو كان مصدره ، يأتينا من هناك .

وضرب سطح الخريطة بسبَّابته ، مضيفًا :

- من أعماق الأرض .

حدَّق الرئيس طويلاً فى الخريطة ، محاولاً فهم أو استيعاب ما ، يمكن أن يعنيه هذا ، ثم لم يلبث أن تمتم فى توتر :

- هل تنوى مهاجمة الأعماق ؟!

لوَّح القائد الأعلى بيده ، قائلاً :

- لقد جربنا المواجهة عند السطح ، وخسرنا كل الجولات ، على الرغم من كل محاولاتنا ، ولم يعد لدينا ما يمكن أن نخسره ، أكثر من هذا .

وصمت لحظة ، ليحمل صوته بعدها نبرة عسكرية حازمة ، وهو يضيف :

- سنطلق قنبلة الأعماق ، نحو ذلك الممر ، الممتد من الكهف إلى باطن الأرض ، ونعمل على توجيهها عن بعد ، حتى تبلغ نهاية الممر ، وعندئذ ..

تطلع إليه الرئيس فى شحوب ، دون أن ينتظر باقى العبارة ، التى لم يتمها القائد الأعلى قط ، وكأنما يدرك عقم إتمامها ، ثم تراجع الرئيس فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قائلاً :

- انفجار نووى محدود ، على عمق كبير ، فى باطن الأرض ، تحت أرض (مصر) مباشرة .

غمغم القائد الأعلى :

- ما من سبيل آخر .

تابع الرئيس ، وكأنه لم يسمعه :

- ارتجاج عنيف .. اضطراب داخلى .. زلازل .. نتائج لا يمكن التنبؤ بها .

تساءل القائد الأعلى ، فى شىء من الصرامة :

- هل ننتظر حتى يبدأ الغزو ، يا سيادة الرئيس ؟!

رمقه الرئيس بنظرة متوترة طويلة ، ثم أطلق من أعماق صدره زفرة عصبية ، ولوّح بيده ، قائلاً :

- أرجو ألا نكون فى سبيلنا إلى توقيع وثيقة موتنا .

ثم اعتدل ، وأضاف فى مرارة :

- ولكن ما من سبيل آخر .. أطلقوا قنبلة الأعماق .

وكانت البداية ..

بداية النهاية ..

* * *

6 - فى العمـــق ..

فى هذه المرة ، عاد الجميع بحق ..

القاعة كلها أضيئت ، وظهر فيها كل المفقودين ..

الدكتور (أنور شعبان) ، وأستاذة الجيولوجيا الدكتورة (نهى) ، ومندوبا هيئة الآثار (مكرم) و(ياسر) ..

وأفراد فريق (نور) ..

وكانت الدهشة من تصيبهم هم هذه المرة ..

كلهم حدّقوا فى وجه (نور) ، وفيما حولهم ، وكأنهم يفيقون من سبات عميق ، أو غيبوبة طويلة ..

وران على القاعة كلها صمت رهيب ..

صمت متوتر ..

غامض ..

مضطرب ..

ثم كان (أكرم) هو أول من كسر هذا الصمت ، وهو يهتف :

- رباه ! ماذا يحدث ؟!

تطلّع إليه (نور) فى حذر ، وهو يتساءل : أهى حقيقة هذه المرة ، أم أنها جزء من اختبار الوهم الطويل ؟!

وبكل خوفها وانفعالها ، اندفعت ابنته (نشوى) نحوه ، وألقت نفسها بين ذراعيه ، هاتفة ، فى صوت أقرب إلى البكاء :

- أبى ؟! أين نحن ؟! وما الذى أتى بنا إلى هنا ؟!

احتواها (نور) بين ذراعيه فى حنان ، وصرخ قلبه بأنه من المستحيل أن يكون هذا وهمًا ، فهمس فى أذنها فى ارتياح :

- اطمئنى يا صغيرتى .. والدك هنا لحمايتك .

لم يدر ما إذا كانت عبارته صادقة أم لا ، إلا أن كل ما أراده ، فى تلك اللحظة ، هو أن يبث فيها شيئًا من الاطمئنان ..

ومن المؤكد أنه نقل إليها ما أراد ؛ فقد أراحت رأسها على صدره ، مغمغمة فى خوف :

- ماذا سيفعلون بنا يا أبى ؟!

ربّت عليها فى حنان ، وزوجته (سلوى) تندفع نحوه بدورها ، فضمها إليه أيضًا ، و(أكرم) يقول فى عصبية :

- إذن فقد ظفروا بك أيضًا يا (نور) .

تمتم (نور) مبتسمًا فى شحوب :

- المهم أننا معًا يا صديقى .

اقترب الكل من بعضهم البعض ، وقال (رمزى) :

- ولكن أين نحن بالضبط ؟!

قبل أن يجيب (نور) تساؤله ، اندفع الدكتور (أنور) يقول :

- عندهم .. فى عالمهم .

كان صوته شديد الاضطراب ، كما بدا وجهه شاحبًا ، كوجوه مرافقيه الثلاثة ، والدكتورة (نهى) تقول مرتجفة :

- لا .. لا يمكننى أن أصدق مايحدث .. كل العصور الجيولوجية التى درسناها ، لم تشر إليهم قط .

وهتف مندوب هيئة الآثار (مكرم) :

- ولا نحن أيضًا يمكننا أن نشير إليهم .. إننا لم نر أيهم ، حتى هذه اللحظة .

جذبت العبارة انتباه (نور) ، فسأله :

- كيف أتيتم إلى هنا إذن ؟!

تبادل الأربعة نظرة حائرة ، قبل أن يقول الدكتور (أنور) ، فى صوت حمل رنة شك وحيرة :

- لا يمكننى أن أجيب سؤالك بدقة ، ولكن كل ما أذكره هو أننا قد دخلنا إلى ذلك الكهف ، وعثرنا فيه على آلات مدهشة .

أكملت الدكتورة (نهى) فى انفعال :

- آلات مصنوعة كلها من الماء .. أو من سائل أشبه بالماء .. آلات ليس لها مثيل فى عالمنا .

هتف مندوب هيئة الآثار (ياسر) :

- ثم فجأة ، أحاطوا بنا .

تبادل أفراد فريق (نور) نظرة متوترة ، فتابع المندوب الآخر (مكرم) ، فى عصبية واضحة :

- مخلوقات مائية .. كتل من الماء ، تتخذ هيئات شبه بشرية ، خرجت من جدران الكهف ، وأحاطت بنا من كل صوب .

ارتجف صوت الدكتورة (نهى) فى شدة ، مع إضافتها :

- ثم انقضت علينا .

هتف (أكرم) :

- ووجدتم أنفسكم هنا .

تبادل الأربعة نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يغمغم الدكتور (أنور شعبان) فى توتر :

- بالضبط .. انقضوا علينا ، فغبنا عن الوعى ، أو فقدنا الإحساس به تمامًا ، ولم نستعد إدراكنا ، إلا لنجد أنفسنا فى هذه القاعة .

غمغم (أكرم) فى عصبية :

- هذا ما أصابنى أيضًا .

تمتم (رمزى) :

- وأنا .

وتبادلت (سلوى) نظرة متوترة مع (نشوى) ، قبل أن تقول :

- ونحن أيضًا .. لقد هاجمونا فى المعسكر .. مياه تدفقت من الكهف ، وأحاطت بنا ، ثم فجأة ، تحولت إلى تلك المخلوقات السائلة .

وهتفت (نشوى) :

- أشعة الليزر لم تؤثر فيها .

مطَّ (أكرم) شفتيه ، وقال فى حدة :

- وكذلك رصاصات مسدسى .

قالها ، وهو يتحسس مسدسه بحركة غريزية ، وأدهشه كثيرًا أن وجده فى موضعه ، فتمتم مستطردًا :

- ولهذا تركوه .

قال (نور) فى حزم ، وهو يدير عينيه فى وجوههم جميعًا :

- إذن فقد جمعونا كلنا هنا لسبب ما .

أشار (رمزى) بسبابته ، قائلاً :

- السؤال هو : لماذا ؟! لماذا جمعونا ، ولم يحاولوا التخلص منا جميعًا .

كان (نور) يهم بإجابة سؤاله ، عندما اندفع الدكتور (أنور) ، يجيب فى عصبية :

- ليدرسونا .

استدار إليه الجميع فى توتر بالغ باستثناء (نور) ، الذى عقد حاجبيه فى ضيق ، و(أكرم) يهتف مستنكرًا :

- يدرسوننا ؟! لماذا ؟! أنحن فئران تجارب لهم ؟!

أشار الدكتور (أنور) بسبابته ، مجيبًا :

- بالضبط .

استفز الجواب (أكرم) بشدة ، وهم بالصياح مستهجنًا ، ولكن الدكتورة (نهى) قالت مضطربة :

ـ وفقًا لما نتصوره ، بحكم خبرتنا ودراستنا ، فهذه الحضارة تسبق حضارتنا بملايين السنين .

اندفع الدكتور (أنور) يكمل :

ـ ربما بدأت على السطح مثلنا ، ثم انتقلت للعيش تحته ؛ بسبب كارثة بيئية رهيبة .. الانفجار الذى أودى بالديناصورات مثلاً(*) ، أو العصر الجليدى ، الذى لم تعد الحياة تطاق معه على السطح ، فلجأ البشر إلى الأعماق ، حيث الدفء والأمل .

تساءلت (سلوى) فى حيرة :

ـ لو أن هذا صحيح ، فلماذا لم تعد تلك الحضارة إلى السطح ، بعد نهاية العصر الجليدى ؟!

أجابتها الدكتورة (نهى) :

(*) تشير إحدى النظريات ، التى ناقشت انقراض الديناصورات ، قبل ظهور الإنسان ، إلى سقوط نيزك ضخم ، دمر الحياة على وجه الأرض ، وقضى على الديناصورات كلها ، ثم نشأت الحياة بعد زوال آثاره الرهيبة .

ـ ربما لأن عجلة التطور قد توقفت مع الكارثة ، واعتاد أهل تلك الحضارة العيش فى الأعماق ، واندثر تاريخهم تدريجيًا ، فلم تعد الأجيال التالية منهم تدرك أنهم قد بدءوا على السطح ، بل وربما استنكر بعضهم مجرد الفكرة .

غمغم (نور) :

ـ هذا ما حدث بالفعل .

استدارت العيون كلها إليه ، وهتف مندوب هيئة الآثار (مكرم) :

ـ وكيف تعرف هذا ؟!

أشار (نور) بيده إشارة مبهمة ، وقال :

ـ هم أخبرونى .

انعقد حاجبا (أكرم) فى شدة ، وحدق (رمزى) فى وجه (نور) بدهشة ، شاركه فيها (سلوى) و(نشوى) ومندوبا هيئة الآثار ، فى حين غمغمت الدكتور (نهى) فى عصبية :

ـ هم ؟!

أما الدكتور (أنور) ، فقد هتف بمنتهى اللهفة :

ـ هل التقيت بهم ؟! هل رأيتهم ؟! أخبرنا كيف يبدون ؟! أهم تلك الكائنات السائلة ، أم ....

قبل أن يتم تساؤلاته ، دوت فى المكان بغتة فرقعة قوية ، ألجمت ألسنة الجميع ، ودفعتهم إلى حركة عشوائية مضطربة ، قبل أن يسحب (أكرم) مسدسه ، هاتفًا :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

لم يكن قد أكمل عبارته ، عندما تساقطت تلك الفقاعات الكبيرة فجأة ، من سقف القاعة ..

فقاعات سائلة ، لامعة ، ضخمة ، تشبه تمامًا كرات من الزئبق ، المعروف فى عالمنا ، ولكنها شفافة كبيرة ..

وتراجع الكل بحركة حادة ..

تراجعوا مبتعدين عن تلك الفقاعات ، التى راحت تتحور فى سرعة ، كما لو أن يدًا خفية تعمل على تشكيلها ، والتمعت صورتهم على سطحها الشفاف نصف المصقول ، وهى تتشكل ..

وتتشكّل ..

وتتشكّل

ثم اتسعت عيون الجميع فى دهشة بالغة ..

فما تحولت إليه هذه الفقاعات الزئبقية كان عجيبًا .. ومثيرًا ..

للغاية ..

★ ★ ★

اتسعت عينا رئيس الفريق العلمى عن آخرهما ، وهو يحدق فى وجه القائد الأعلى ، فى مزيج من الذعر والدهشة والاستنكار ، قبل أن يقول ، فى عصبية شديدة :

ـ سيدى .. هذا أمر بالغ الخطورة ، إلى حد لا يمكنكم تصوّره .

قال القائد الأعلى فى صرامة :

ـ إنها ورقتنا الأخيرة ، وواجبى يحتم علىّ أن ...

قاطعه رئيس الفريق فى حدة :

ـ وواجبى يحتم علىّ تحذيركم ، من مغبة هذا التصرف ، وتبصيركم بعواقبه .

تراجع القائد الأعلى ، واستمع إليه فى توتر ، وهو يتابع فى انفعال شديد :

- منذ تسعينيات القرن العشرين ، دخلت (مصر) حزام الزلازل ، وأصبحت عالقة ، فوق صفائح أرضية جيولوجية غير مستقرة ، وانفجار عنيف كهذا ، فى أعماق الأرض ، فى منطقة (سيناء) ، كفيل بإصابة تلك الصفائح القارية غير المستقرة ، باضطراب مفاجئ عنيف ، لا يمكن التنبؤ بنتائجه قط ، فقد تأتى على هيئة زلزال قوى ، يتجاوز تسع درجات ، وفقًا لمقياس ريختر(*) ، أو موجة مد رهيبة هائلة ، تضرب شواطئ (مصر) ، والمنطقة المجاورة ، بارتفاع ثلاثين مترًا على الأقل ، وبقوة سحب تكفى لإبادة مدن ساحلية كاملة ، وإغراق قاطنيها فى أعماق البحر ، أو على هيئة تشققات تحت أرضية ، تدفع الحمم الملتهبة إلى السطح ، لتغمر (مصر) كلها ، من أقصاها إلى أقصاها .. باختصار ، تفجير تلك القنبلة قد يعنى دمارًا ، يفوق كل ما قد تتوقعه من ذلك الغزو .

بلغ توتر القائد الأعلى مداه ، هو يستمع إليه ، فنهض من خلف مكتبه ، وقال فى عصبية :

- ألديكم وسيلة أخرى إذن ؟!

(*) مقياس ريختر : نظام رقمى ، يسجل شدة الهزات الأرضية ، ابتكره عالم الزلازل الأمريكى (تشارلز ريختر) ، عام 1935م ، بلغ أعلى مقدار مسجل له (8.9) ، عام 1906م ، فى المحيط الهادى ، وفى اليابان عام 1933م ، والمقياس يقسم الزلازل إلى اثنتى عشرة درجة .

قلّب رئيس الفريق كفيه مستسلمًا ، وقال فى يأس :

- كلا للأسف .

أطلق القائد الأعلى من أعمق أعماقه زفرة متوترة عصبية ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

- ابحثوا إذن عن وسيلة لتفادى تلك الآثار المدمرة ، التى تتحدث عنها .

هزّ الرجل رأسه فى عنف ، قائلاً فى عصبية :

- تفادى الآثار الجانبية للانفجار مستحيلة .. كل ما يمكننا هو تحديد أفضل منطقة ، يمكن اختيارها للتفجير ، لتقليل التداعيات إلى أقل حد ممكن ولكن مهما فعلنا ، ستكون النتائج أعنف مما يمكن تصوّره .

شعر القائد الأعلى باختناق شديد ، مع محاصرته بتلك النتائج المخيفة ، فقال فى حدة :

- لا يمكننا الوقوف ساكنين .. لا بد وأن نفعل شيئًا .. أى شىء .

لم يجد الرجل جوابًا لهذا ، فاكتفى بقلب كفيه فى استسلام شديد ، دون أن ينطق بحرف واحد ، إلا أن القائد الأعلى التفت إليه ، قائلاً بمنتهى الصرامة :

ـ ابحثوا عن حل .

هزّ رئيس الفريق رأسه في استسلام ، وهو يقول في يأس :

ـ مستحيل ! تفجير قنبلة نووية ، تحت قشرة الأرض ، فى أعماق (سيناء) ، لايمكن أن يمر دون أن ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، فانتبه القائد الأعلى ، وهتف به فى لهفة :

ـ هل وجدت الحل ؟!

تردد الرجل لحظة ، قبل أن يجيب ، فى حذر شديد :

ـ الحمم .

سأله القائد الأعلى بكل انفعاله :

ـ ماذا عنها ؟!

أشار رئيس العلماء إلى تلك الخريطة الجيولوجية ، التى أحضرها معه ، وقال فى توتر ، ما زال يحمل الكثير من الحذر :

ـ ماذا لو استخدمنا قنبلة الأعماق مع رأس تفجيرية عادية ، وليس رأس نووية محدودة .

سأله القائد الأعلى فى ترقّب :

ـ وبِمَ يفيدنا هذا ؟!

عاد يشير إلى الخريطة ، مجيبًا ، وقد زال الكثير من حذره :

ـ لو أننا أحسنا توجيه القنبلة ، نحو تلك المنطقة ، فستفجرُ هذه الطبقة تحت الأرضية ، فتنطلق الحمم من باطن الأرض ، وتنسكب فى ذلك الممر الغامض ، الممتد من الكهف إلى الأعماق ، و ...

هتف القائد الأعلى ، مكملاً فى حماس :

ـ ونترك لقوى الطبيعة مهمة التعامل ، مع أولئك الغزاة ، فى باطن الأرض .

رفع رئيس العلماء يده ، وصاح فى حماس أكبر :

ـ بالضبط .

تألّقت عينا القائد الأعلى ، وأشار إلى رأس الرجل ، قائلاً بمنتهى الحماس :

ـ كنت أعلم أن هذه العقول العبقرية ستجد مخرجًا حتمًا .

غمغم رئيس العلماء :

ـ لم يكن هناك مخرج آخر .

هتف القائد الأعلى :

- وهو مخرج رائع .. ما من قوة فى الكون كله ، يمكنها أن تتفوق على قوى الطبيعة .

قالها ، وأصابعه تضغط أزرار جهاز اتصاله الخاص ، ليلقى أوامره الجديدة الصارمة ..

ولينطلق شرارة الحرب ، نحو قوى ما زال يجهل الكثير عنها .. الكثير جدًا ..

* * *

« رباه ! إنها أجهزتنا .. »

هتفت (سلوى) بالعبارة فى ذهول ، وهى تحدق فى تلك الأجهزة والمعدات ، التى تكوَّنت من فقاقيع الزئبق الشفاف ..

كانت نماذج طبق الأصل من كل المعدات والأجهزة ، التى أحضرها الفريق معه ، عندما بدأ مهمته هذه ..

حتى الكمبيوتر الشخصى الخاص بـ (نشوى) ، كان يستقر هناك ..

أو هو نموذج طبق الأصل منه ..

نموذج زئبقى شفاف ..

بل نصف شفاف ..

فما أن تكوَّنت تلك الأجهزة والمعدات ، حتى راح ذلك الزئبق الشبيه يتماسك ويتصلب ، حتى أصبح مادة قوية ، اقتربت منها (سلوى) ، ولمستها بأصابعها ، قبل أن تغمغم :

- مدهش !

شعر (أكرم) بتوتر شديد ، جعله يصوِّب مسدسه إلى تلك الأجهزة الزئبقية ، وهو يقول فى حدة :

- أى عبث شيطانى هذا ؟!

أجاب (نور) فى خفوت :

- (الزوريوم) .

هتفت (نشوى) بكل دهشتها :

- الـ ... ماذا ؟!

فى حين ارتجفت سبَّابة الدكتور (أنور) مع صوته ، وهو يشير بها نحو (نور) ، هاتفًا فى انفعال :

- لقد أخبروك .. لقد أخبروك .

وسألته الدكتورة (نهى) فى توتر فضولى :

- وما هذا الـ .. (الزوريوم) ؟!

أجاب (نور) ، وهو يتحسّس الأجهزة ، التى تماسكت ، وتحوّلت إلى نسخ صلبة ، مماثلة تمامًا لأجهزة فريقه :

ـ إنه عنصر ذكى ، له جزيئات حيوية ، يمكنها التنقُّل ، من الحالة السائلة إلى الصلبة والعكس ، وباستطاعتها أن تتخذ أية هيئة تريد .

قالت (نشوى) فى حزم ، جعلها أقرب ما تكون شبهًا لأبيها :

ـ ليس المهم هيئتها ، وإنما السؤال هو : هل يمكن أن تعمل بنفس الكفاءة ؟

قالتها ، وتبادلت نظرة حذرة مع أمها ، ثم اتجهت كل منهما إلى جهازها ، وتعلّقت كل العيون بأصابعهما ، التى راحت تعمل على الأجهزة الشبيهة ، قبل أن تقول (سلوى) بمنتهى الدهشة :

ـ رباه ! إنها تعمل بنفس الكفاءة .

أضافت (نشوى) فى توتر :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكن ذاكرتها تحمل كل ما كانت تحمله أجهزتنا الأصلية .

اتسعت عينا (رمزى) ، وهو يقترب منهما ، قائلاً :

ـ إلى هذا الحد ؟!

شعر (أكرم) بتوتر أكثر ، وقبض على مقبض مسدسه بمنتهى القوة ، وهو يقول :

ـ هذا لا يروق لى .

أجاب (نور) ، دون أن يرفع عينيه ، عن تلك الأجهزة الزئبقية الشبيهة :

ـ وأنا كذلك .

هتف الدكتور (أنور) ، فى حماس شديد :

ـ ولكن هذا مدهش .. رائع .. فريد .

سألته الدكتورة (نهى) فى عصبية :

ـ ما الذى يبهجك إلى هذا الحد ؟!

أجابها فى حماس شديد :

ـ ألا يمكنك إدراك هذا ؟! أين حاستك العلمية إذن ؟! إنها فرصة نادرة ، لا يمكن أن تتاح لعالم ، إلا مرة واحدة فى الزمان كله .

حدّق فيه مندوبا هيئة الآثار فى دهشة مستنكرة ، وهتف أحدهما فى استهجان :

ـ أية فرصة ؟! إننا ضائعون !

لوّح الدكتور (أنور) بذراعيه كلتيهما فى حماس شديد ، وهو يقول :

ـ بل نحن محظوظون .. لقد منحنا القدر فرصة مدهشة ؛ لدراسة حضارة أخرى من داخلها ، ورصد مصادر قوتها ، وتاريخها ، وتطوّرها .. أى عالم فى التاريخ حظى بمثل هذا ؟!

صاح به (مكرم) فى حدة :

ـ بل أى عالم أحمق مجنون ، يمكن أن يفكّر بأسلوبك هذا ؟!

وهتف (ياسر) :

ـ هذا الرجل مجنون حتمًا .

لم يكد ينطقها ، حتى انطلقت شهقة قوية ، من حلق (سلوى) ، فالتفت إليها الجميع ، وسألها (نور) فى اهتمام متوتر :

ـ ماذا هناك يا (سلوى) ؟!

أشارت إلى جهازها ، مجيبة :

ـ هذا الجهاز يعمل جيدًا .

لم يفهم (نور) ما تعنيه ، فى حين سألها (أكرم) فى عصبية :

ـ وما الجديد فى هذا ؟!

عادت تشير إلى شاشة جهازها ، مجيبة :

ـ لقد التقط ارتجاجًا عنيفًا ، على ارتفاع ثلاثمائة متر ، من موقعنا هذا .

غمغم (نور) فى قلق :

ـ عند سطح الأرض ؟!

تابعت ، دون أن تتوقف عند عبارته :

ـ ارتجاج ناشئ عن جسم اخترق طبقات الأرض ، ويتجه إلى منطقة قريبة من موقعنا هذا .

وأدارت عينيها ، لتتطلّع إلى عينى (نور) مباشرة ، وهى تضيف ، بصوت شديد الارتجاف :

ـ منطقة تقود مباشرة إلى قلب الأرض .. إلى بحيرة كبيرة .

غمغمت الدكتورة (نهى) فى ارتياع :

ـ بحيرة .

أجابتها (سلوى) ، بصوت أكثر ارتجافًا :

ـ نعم .. بحيرة من الحمم الملتهبة .

واتسعت عيون الجميع عن آخرها ..

بمنتهى الرعب .

* * *

7 ـ الحمم ..

« نصف الساعة فحسب ، ويحدث الانفجار .. »

نطقها رئيس فريق العلماء فى توتر ، وهو يتابع الإحداثيات ، التى تتراص بتتابع سريع ، على شاشة جهاز كبير ، فسأله القائد الأعلى ، عبر جهاز اتصال مرئى خاص :

ـ هل يسير كل شىء على ما يرام ؟!

أجابه الرجل ، دون أن يفارقه توتره :

ـ نعم يا سيدى .. أجهزة الحفر الليزرية ، مع الرءوس شبه الماسية ، تقوم بعملية الحفر ، على نحو ناجح منتظم ، والقنبلة تشق طريقها ، وفقًا للخريطة الجيولوجية ، نحو بحيرة حمم تحت أرضية ، متخذة مسارًا يربط تلك البحيرة ، بالممر الممتد فى ذلك الكهف الغامض إلى العمق ، وما أن تصل إلى هناك ، وتنفجر ، حتى تندفع الحمم ، إلى حيث نريد .

غمغم القائد الأعلى :

ـ عظيم .

صمت رئيس العلماء لحظة ، ثم قال فى حذر :

ـ سيسير كل شىء على ما يرام ، بافتراض سلبية رد الفعل .

جعلت العبارة الأخيرة القائد الأعلى يعتدل على مقعده ، قائلاً فى توتر بالغ :

ـ ماذا تعنى ؟!

تردَّد رئيس العلماء لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ إننا لا نعلم كيف سيردون على هجومنا هذا .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده فى بطء ، وهو يتطلَّع إلى الرجل ، ثم لم يلبث أن قال ، فى عصبية واضحة :

ـ ما نفعله يندرج تحت بند الدفاع ، لا الهجوم .

لوَّح الرجل بيده ، قائلاً :

ـ لست أظن المسميات والمصطلحات ستصنع فارقًا فى الأمر .. لقد أطلقنا نحوهم قنبلة ، كفيلة بتدمير المكان ، الذى اتخذوه نقطة انطلاق لهم ، ولو أننا فى موضعهم ، لما وقفنا ننتظر هكذا ساكنين .

قال القائد الأعلى فى حدة :

ـ لو أننا فى موضعهم ، لما بادرناهم بالهجوم ، دون أى مبرر .

تردَّد رئيس العلماء لحظة ، وبدا من الواضح أنـه يدير جوابًا ما فى رأسه ، قبل أن يلقى به ، فهتف القائد الأعلى فى عصبية :

ـ هات ما لديك يا رجل .

تردَّد الرجل لحظة أخرى ، ثم اندفع قائلاً :

ـ الواقع أننا قد درسنا هذا الموقف كله ، ولم يمكننا حسم هذه النقطة بالتحديد ؛ فهم لم يبادروا بأى هجوم .

هتف القائد الأعلى فى حدة :

ـ وماذا عن اختطاف الدكتور (أنور) ومجموعته .. وفريق (نور) ؟!

تراجع الرجل خطوة ، وهو يجيب :

ـ ربما كان هذا دفاعًا عن النفس .

لم يكن من الممكن أبدًا إهمال هذا الاحتمال ، لذا فقد حدَّق القائد الأعلى فى وجهه لحظة ، ثم عاد يتراجع فى مقعده ، ويدير الفكرة فى رأسه ، ثم تمتم :

ـ مهما كانت البدايات ، لم يعد هناك مجال للتراجع .

وكانت عبارته هذه سليمة تمامًا ..

فوفقًا لبرنامج قنبلة الأعماق ، لم يكن من الممكن أبدًا إيقافها ، بعد أن تبدأ عملية الحفر ..

وهذا يعنى أن الانفجار آت لا ريب ..

والحمم ستنطلق حتمًا ، من باطن الأرض ، إلى ذلك النفق ، الذى يربط الكهف بعالم الأعماق ..

وعندئذ ستلتهم كل شىء ..

وكل شخص ..

بلا رحمة ..

* * *

بكل توتر الدنيا ، راحت (سلوى) تتابع ، على شاشة الجهاز الزئبقى البديل ، تقدم قنبلة الأعماق ، نحو بحيرة الحمم ..

وبكل ذعر الدنيا ، هتفت الدكتورة (نهى) :

ـ سنحترق كلنا .. الحمم ستتدفق هنا ، وتلتهم كل شىء .. لن ننجو .. لن ننجو أبدًا .

وانهار مندوبا هيئة الآثار تمامًا ، وراحا يصرخان على نحو هستيرى ، فهتف (نور) بـ (رمزى) :

- مهمتك يا صديقى .

اندفع (رمزى) إليهما ، محاولاً تهدئتهما ، فى حين بدا الدكتور (أنور) ذاهلاً ، وهو يقول :

- ولكن لماذا ؟! لماذا فعلوا هذا .

انعقد حاجبا (أكرم) فى شدة ، وهو يحاول البحث عن جواب ما ، ويده تلوّح بمسدسه ، دون هدف واضح ، فى حين التقط (نور) نفسًا عميقًا ، محاولاً السيطرة على أعصابه ، وهو يسأل (سلوى) و(نشوى) :

- كم تبقى أمامنا ؟!

أجابته (سلوى) فى توتر :

- اثنتان وعشرون دقيقة ، قبل أن تنفجر القنبلة ، فى بحيرة الحمم ، وست دقائق إضافية تقريبًا ، قبل أن تصل إلى هنا .

قالت الدكتورة (نهى) فى انهيار :

- سنموت قبل مضى نصف هذه الدقائق الست .. الغازات والأبخرة ، التى ستنطلق من الحمم الملتهبة ، ستبلغنا قبل الحمم نفسها .

كان منطقها سليمًا ، من الناحية العلمية ، إلا أن (نور) حافظ على تماسكه وهدوئه ، بقلب ينافس الأسود ، وهو يقول :

- هذا يعنى أن أمامنا عشرين دقيقة تقريبًا ؛ لنجد حلاً لهذا الأمر .

صرخت الدكتورة (نهى) :

- أى حل ؟! أى حل ؟! إنك تتحدث عن قوى الطبيعة .. أكثر القوى جبروتًا ، فى عالمنا كله .. لا أحد يمكنه أن يقف أمامها ، أو يتصدّى لها .. لا أحد أمكنه مقاومة الفيضانات ، أو الأعاصير ، أو الثورات البركانية .

تجاهل (نور) حديثها تمامًا ، وهو يقول لـ (نشوى) :

- ماذا لو انفجرت القنبلة ، ولم تبلغ الحمم هذا المكان ؟!

هزّت (نشوى) رأسها نفيًا ، وهى تراجع الخرائط الجيولوجية للمنطقة كلها ، وقالت فى يأس واضح :

- لا يوجد مسار آخر .

وأكملت (سلوى) مرتجفة :

- مسار القنبلة يحتم تدفق الحمم هنا .

وأضاف (أكرم) فى عصبية :

- ولسنا نملك أية وسيلة للمقاومة ، ونحن سجناء هنا كالفئران .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وأدار بصره فى عيون الجميع ، قبل أن يتراجع ، إلى منتصف القاعة ، ثم يهتف بكل قوته :

ـ وماذا عنكم ؟!

تطلّع إليه الجميع فى دهشة ، ولكنه تابع فى عصبية :

ـ ماذا ستفعلون ، لحماية عالمكم هذا ؟!

مضت لحظات من الصمت ، غمغم خلالها (أكرم) مشدوهًا :

ـ ماذا أصابك يا (نور) ؟!

صرخ (نور) مكرّرًا :

ـ ماذا ستفعلون ؟!

ومع صرخته الأخيرة هذه ، دوت فى القاعة فرقعة قوية .. فرقعة صمّت آذان الجميع ، قبل أن تتألّق جدرانها كلها بضوء عجيب ، يتحرك بسرعة مدهشة ، جعلت الدكتورة (نهى) تصرخ ..

وتصرخ ..

وتصرخ ..

ثم فجأة ، توقف ذلك الضوء ، وثبت تمامًا ..

ومع ثباته ، انبعث ذلك الصوت ، الشبيه بخرير المياه ، وهو يقول بتلك اللغة العربية ، ذات اللكنة العجيبة :

ـ عالمنا آمن .

انتفضت أجساد الجميع مع العبارة ، واتسعت عينا الدكتور (أنور) ، وهو يقول مبهورًا :

ـ إنهم هم .

ردّد (أكرم) ذاهلاً ، وهو يدور حول نفسه ، ملوحًا بمسدسه فى كل الاتجاهات :

ـ هم ؟!

تابع الصوت ، وكأنه لا يشعر حتى بوجودهم :

ـ أنت قلتها أيها المقدم .. تكنولوجيتنا تفوق كل ما توصلتم أنتم إليه بكثير .. ربما لأننا هنا قبلكم بكثير .. كثير جدًا .

هتف الدكتور (أنور) ، وكأن علمه هو كل ما يشغله :

ـ كيف نشأتم ؟! ومتى ؟!

مرة أخرى ، تجاهله ذلك الصوت تمامًا ، وتابع حديثه ، بذلك الخرير العجيب :

- أسلحتكم ، مهما بلغت قوتها ، لا يمكنها أن تزلزل دفاعاتنا ، التى نطوّرها منذ ملايين السنين .. قنبلتكم ستنفجر فى بحيرة الحمم ، ولكن شيئًا لن يصيب عالمنا ، أو يصيبكم .

تبادل الكل نظرة صامتة انفعالية ، ثم تساءل (نور) فى حذر :

- هل ستغيرون مسار الحمم ؟!

أجابه الصوت فى هدوء :

- كلاً .. الحمم ستنطلق إلى أعلى ، عبر المسار الذى ستحفره قنبلتكم فقط ، لأنها لن تجد مسارًا آخر تسلكه .

تساءلت الدكتورة (نهى) فى عصبية :

- وكيف هذا ؟!

أجابها الصوت ، فى هدوء بالغ :

- لأن الكهف لن يكون هناك .. ولا الممرات ، التى تقود منه إليكم ، أو إلى عالمنا .. كل هذا سينتقل فورًا ، قبل لحظة واحدة من انفجار القنبلة .. قنبلتكم .

اتسعت عيون الكل فى دهشة متسائلة ، وهتف (أكرم) فى عصبية شديدة :

- أى عبث هذا ؟! أريد أن أفهم ما يحدث هنا ..

ربّت (رمزى) على كتفه ، مغمغمًا :

- هذا يحتاج إلى عقلية مختلفة يا صديقى .

التفت إليه بحركة حادة ، هاتفًا فى غضب :

- ماذا تعنى بقولك هذا ؟! ماذا تعنى ؟!

أما (نور) ، فقد تساءل بكل القلق :

- ماذا تعنى بأن كل هذا سينتقل .

صمت الصوت بضع لحظات ، ثم قال :

- ربما يفوق هذا إدراككم .

قالت (نشوى) فى حدة :

- لو أنك اختبرت ما واجهناه ، لما نطقت هذه العبارة الحمقاء .

صمت الصوت طويلاً هذه المرة ، حتى تصوّر الكل أنه لن يجيب أبدًا ، فتطلعت (سلوى) إلى شاشة الجهاز الزئبقى البديل ، وقالت فى توتر شديد :

- ست عشرة دقيقة فقط تبقت .

وكرّرت الدكتورة (نهى) فى انهيار :

- لا فائدة .. سنموت جميعًا .

مع آخر حروف كلماتها ، عاد ذلك الصوت الحريرى يقول :

ـ هل يمكنكم استيعاب الانتقال الزمكانى ؟!

بدت حيرة مرتبكة على وجه (أكرم) ، فى حين بدا التوتر على وجوه الجميع ، و(نشوى) تغمغم :

ـ انتقال زمكانى ؟! أتعنى أنكم ستنقلوننا جميعًا ، عبر الزمان والمكان .

أتاها الجواب رهيبًا :

ـ لن ننقلكم وحدكم .. بل سننقل شعبنا كله .. كل شىء سيقفز عبر الزمان والمكان ، إلى نقطة ما فى المستقبل ، تتجاوز مرحلة الخطر تمامًا .

اتسعت العيون كلها فى دهشة ، وهتف (نور) :

ـ آه .. هذا ما فعلتموه إذن ، عندما انفجرت القنابل النووية المحدودة .. انتقلتم إلى المستقبل ، عبر الزمان والمكان .

حدَّق فيه الكل بذهول ، وغمغمت (سلوى) مبهوتة :

ـ قنابل نووية محدودة ؟! متى حدث هذا ؟!

جاء الصوت ليمنع (نور) من إجابتها ، أو شرح ما حدث على السطح ، وهو يقول :

ـ كانت مجرد قفزة محدودة للغاية ، عبر الزمان والمكان ، لساعات ودقائق قليلة ، ولكننا هذه المرة سنقفز قفزة كبيرة .. قفزة تكفى لتفادى كل ما ستواجهه المنطقة ، إثر انفجار القنبلة ، وتستمر حتى ينسى الكل تداعياتها ، ومعها قصتنا كلها .. باختصار .. قفزة إلى مرحلة زمكانية آمنة .

تبادل الكل نظرة شديدة التوتر ، وهتف (نور) :

ـ وما هى تداعيات انفجار القنبلة .

مضت لحظة طويلة من الصمت ، قبل أن يقول ذلك الصوت ، فى هدوء شديد :

ـ لسنا نظن أنه سيسعدك أن تعرف هذا .

فجَّرت الإجابة ذعرًا عنيفًا ، فى نفوس الجميع ، فصرخت الدكتورة (نهى) ، وانهار مندوبا هيئة الآثار ، وتراجع الدكتور (أنور) مذعورًا ، وشهقت (سلوى) و(نشوى) ، وهتف (أكرم) ، وهو يلوِّح بمسدسه :

ـ أيها الأوغاد .

أما (نور) ، فقد صاح فى غضب :

ـ ليس من حقكم أن تفعلوا هذا .. ليس من حقكم .

صرخت (سلوى) ، مع نهاية عبارته ، فاستدار الكل إليها ، ليسمعوا (نشوى) تقول فى انفعال ، وهى تشير إلى شاشة الجهاز الزئبقى البديل :

ـ أبى .. الزمن يتسارع ، على نحو مخيف .

حدّق الكل فى شاشة الجهاز الشبيه ، وخفقت قلوبهم فى عنف ، مع الساعة الرقمية ، فى ركن الشاشة ، والتى راحت أرقامها تتغيّر بسرعة مخيفة ، فصرخ (نور) مرة أخرى :

ـ ليس من حقكم .

لم تكد صرخته تكتمل هذه المرة ، حتى اهتزّت الأجهزة الزئبقية فى عنف ، وراحت تفقد تكوينها ، وتستعيد قوامها الزئبقى شبه السائل ، فصرخت (سلوى) :

ـ ماذا يحدث يا (نور) ؟! ماذا يحدث ؟!

وبكل عصبية الدنيا ، راح (أكرم) يطلق رصاصات مسدسه من حوله ، صائحًا :

ـ أيها الأوغاد .. أيها الأوغاد .

امتزج دوى رصاصاته بصرخات الجميع ، والأجهزة البديلة تتحوّل كلها مرة أخرى ، إلى فقاعات زئبقية شفافة ، وضوء القاعة يخفت ..

ويخفت ..

ويخفت ..

ومع صرخة أخيرة ، أظلمت القاعة تمامًا ..

وفور إظلامها ، شعر الكل بضغط هائل على عقولهم وأجسادهم ..

ضغط يفوق قدرتهم على الاحتمال ..

ولمرة أخيرة ، صرخ (نور) :

ـ ليس من حقكم .

ثم هوى عقله فى بئر عميقة ..

أو فى كهف ..

كهف مظلم .. بلا نهاية ..

* * *

« دقيقتان فحسب ، ويحدث الانفجار .. »

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى توتر شديد ، عندما سمع عبارة رئيس فريق العلماء ، عبر جهاز الاتصال الخاص ، وتراجع فى مقعده ، محاولاً السيطرة على انفعاله ، وهو يستعيد كلمات الرجل ..

لا أحد يدرى ، كيف سيكون رد الفعل ..

هناك شىء ما حتمًا فى الأعماق ..

شىء ربما جاء من أعماق الفضاء ، ليستقر فى أعمق أعماق كوكب الأرض ..

شىء غامض ..

مجهول ..

مخيف ..

ربما هى مقدمة غزو بالفعل ..

غزو ، اختار مسارًا مختلفًا هذه المرة ، فبدلاً من أن يسقط من أعلى ، انقض من أسفل ..

من تحت الأرض ..

عبر كهف رهيب ..

كهف لا يشبه أى كهف آخر ، عرفته الأرض كلها ..

ولقد عجز كل العلماء عن فهم ما يحدث ..

أو حتى توقُّع خطوة تالية ..

كل ما أمكنهم الجزم به ، هو أن ذلك الشىء يمثل الخطر ..

كل الخطر ..

لهذا كانت محاولات مواجهته ..

ولهذا كانت القنبلة ..

قنبلة الأعماق ..

دقيقة وبضع ثوان ، وتنفجر هناك ..

فى أعماق الأرض ..

ومع انفجارها ، ستندلع حرب ، لا أحد يمكنه التنبؤ بأبعادها ..

أو مداها ..

أو نتائجها ..

فالغزاة ، أيًا كانت ماهيتهم ، لن يقفوا صامتين ، أمام هجوم مباشر كهذا ..

سيكون هناك حتمًا رد فعل ..

رد فعل مجهول ..

وهذا أمر حتمى ، لايمكن أن يكون الخوف منه مبررًا ، للسكوت على مقدمات غزو كهذا ..

هكذا الحرب ..

لا أحد يربحها على طول الخط ..

ولا أحد يخسرها ، دون قتال عنيف ، ومقاومة حتى آخر رمق ..

« دقيقة واحدة ، ويحدث الانفجار .. »

تردَّد صوت رئيس الفريق ، عبر جهاز الاتصال الخاص ، فاعتدل القائد الأعلى فى مقعده ، وتعلَّق بصره بتلك الخريطة الجيولوجية الرقمية أمامه ، التى ترسم مسار قنبلة الأعماق ، وهى تشق طريقها ، نحو بحيرة الحمم ، عبر ذلك النفق ، الذى يقود من الكهف إلى ..

« ربـاه ! »

نقل جهاز الاتصال الخاص صرخة رئيس فريق العلماء المذعورة ، فوثب القائد الأعلى من مقعده ، هاتفًا :

ـ ماذا حدث يا رجل ؟!

ارتجف صوت رئيس العلماء بشدة ، وهو يقول :

ـ النفق .. ذلك النفق ..

أعاد القائد الأعلى بصره إلى الخريطة الرقمية الجيولوجية ، وهو يهتف :

ـ ماذا به ؟!

لم يكد يلقى السؤال ، حتى انتفض جسده كله فى عنف ، وحدَّق فى الخريطة بمنتهى الذهول ..

وأدرك تمامًا أنه لم يكن بحاجة إلى الجواب ..

فعلى الشاشة ، بدا الجواب واضحًا .

جليًا ..

ومخيفًا ..

ذلك النفق لم يعد هناك ..

لقد اختفى فجأة ، وكأنه لم يكن هناك أبدًا ..

اختفى النفق ..

والممرات ..

وحتى الكهف نفسه ..

وبمنتهى الذهول ، غمغم القائد الأعلى :

ـ مستحيل !

أتاه صوت رئيس العلماء ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول فى انهيار شديد :

ـ رباه ! الحمم لن تجد مسارًا آخر .. ستنفجر هنا .. فى قلب (سيناء) ، وستغمر منطقة كبيرة .. ستكون هناك زلازل عنيفة .. وفيضانات .. إنها كارثة .. كارثة رهيبة يا سيّدى .

اتسعت عينا القائد الأعلى عن آخرهما ، وحدّق فى شاشة تلك الخريطة الجيولوجية الرقمية فى ارتياع ، ورئيس العلماء يصرخ ، بكل انفعاله وانبهاره :

ـ كارثة .. كارثة رهيبة .. لقد دمرنا (مصر) كلها أيها القائد .. (مصر) كلها ..

وامتقع وجه القائد الأعلى ، بكل ارتياع الدنيا ، وتعلّق بصره تمامًا بتلك الخريطة ، وهو يسقط على مقعده ..

وعلى الشاشة ، راح العد التنازلى يتواصل ..

ويتواصل ..

ويتواصل ..

عشر ثوان تبقت قبل الانفجار .

قبل الكارثة ..

وصرخ رئيس فريق العلماء :

ـ سامحنا يا إلهى ! سامحنا .

أما القائد الأعلى ، فقد تجمّد على مقعده ، وعيناه معلقتان بالشاشة فى يأس تام ..

ست ثوان تبقت ..

خمس ..

أربع ..

اثنتان ..

واحدة ..

ودوى الانفجار ..

* * *

8 ـ زمن آت ..

كل شىء كان مضطربًا ..

مرتبكًا ..

عنيفًا ..

كل شىء ..

لم يشعر (نور) ، فى حياته كلها ، بآلام تفوق ما شعر به ، فى تلك اللحظات القليلة ..

كان وكأنه يسبح فى أعماق سحيقة ، والضغط على جسده كبير ..

كبير للغاية ..

ولأنه يسبح فى الأعماق ، كان تنفسه عسيرًا ..

ثقيلاً ..

مرهقًا ..

لذا ، فقد قاوم ..

وقاوم ..

وقاوم ..

« استرخ يا (نور) .. هذه هى الوسيلة الوحيدة .. »

أتاه صوت (محمود) هادئًا ، ففتح عينيه ، وحدّق فيه فى دهشة بالغة ، قبل أن يقول :

ـ أيعنى هذا أننى فى غيبوبة عميقة ؟!

ابتسم (محمود) ، واقترب منه ، قائلاً :

ـ أصبحت تدرك متى نلتقى يا صديقى .

تلفّت (نور) حوله ، وحاول أن يمد بصره عبر الفراغ الهائل ، الذى يحيط به من كل صوب ، فغمغم (محمود) :

ـ ألم تعتد هذا بعد يا صديقى ؟!

أومأ (نور) برأسه إيجابًا ، وتساءل :

ـ ماذا عن الباقين ؟!

أجابه (محمود) فى هدوء :

ـ ما أصابكم ليس هينًا يا (نور) ، وأجساد البشر غير مؤهلة لهذا الانتقال الزمكانى الكبير .

سأله (نور) فى إصرار :

ـ ماذا عنهم ؟!

صمت (محمود) بضع لحظات ، ثم أجاب فى هدوء :

ـ سيتعافون يا (نـور) .. لـولا اعتيـادهم مثـل هذه الأمـور ، لكانت العواقب وخيمة .

هتف (نور) فى ارتياع :

ـ أيعنى هذا أنهم مصابون ، على نحو ما ؟!

كرَّر (محمود) فى حزم :

ـ سيتعافون يا (نور) .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى أسى :

ـ على عكس الآخرين .

انتفض جسد (نور) ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى ؟!

ربت (محمود) على كتفه ، قائلاً :

ـ ستعرف كل شىء يا (نور) .. ستعرف كل شـىء ، عندما تستعيد وعيك .

شعر (نور) بالدهشة ، عندما شـعر بيده لأول مـرة ، فتطلع إليه فى دهشة ، وغمغم :

ـ يبدو أن اتصـالنـا هذه المـرة ، أقوى من كل مـرة أخرى يا (محمود) .

ابتسم (محمود) ابتسامة باهتة ، وهو يجيب :

ـ هذا صحيح يا (نور) .

ثم مال نحوه ، مضيفًا :

ـ ربما بفضل رحلتكم ، عبر الزمكان .

جعلت العبارة (نور) ينتفض من أعماقه وهو يقول فى توتر :

ـ ماذا تعرف عما حدث يا (محمود) ؟!

أشار (محمود) بيده قائلاً :

ـ إنها قفزة يا (نور) ، قفزة غير مألوفة ، عبر الزمـان والمكـان .. ليس انتقالاً زمنيًا عاديًا ، كذلك الذى خاضه الفريق من قبل ، فى أكثر من مرة ، حتـى ألفه واعتـاده(*) .. إنـه حالـة خاصـة ، فى اتجـاه واحد .. حالة يمكنك أن تصفها بأنها لارجعية ..

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول :

ـ أحتاج إلى مزيد من التفسير يا (محمود) .

أومأ (محـمود) برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ إنه ليس انتقالاً عبر نهر الزمن يا (نور) .. بل هو أمر مختلف .. قفزة عبر محورى الزمان والمكان معًا .. قفزة إلى المستقبل وحده .. أسلوب ربما يتوصل إليه العلم الأرضى ، بعد جيلين أو ثلاثة .

(*) راجع قصص (عبر العصور) ، (أسرى الزمن) ، (شيطان الأجيال) ، و(الزمن – صفرًا) .. المغامرات أرقام (54) ، (55) ، (56) ، و(100) .

سأله (نور) فى قلق :

ـ أتعنى أننا لم نعد فى زمننا ؟!

هزّ (محمود) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ ولا حتى فى المكان ، الذى انطلقتم منه يا (نور) .

سأله (نور) ، وقد تضاعف قلقه فى شدة :

ـ أين أصبحنا إذن يا (محمود) ؟!

صمت (محمود) بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ فى المستقبل يا (نور) ... مستقبلكم .

مع الكلمة ، انتفض (نور) فى عنف ..

انتفض أو شعر بجسده ينسحب فجأة ، من ذلك الفراغ الهائل ، المحيط به من كل صوب ..

كان وكأنه ينطلق ، عبر نفق طويل مظلم ..

أو كهف عميق ..

عميق ..

عميق إلى أقصى حد ..

ثم فجأة أيضًا ، استعاد وعيه ..

وبحركة حادة ، فتح عينيه ، وهبّ جالسًا ، وحدّق فيما حوله ، بمنتهى الدهشة والتوتر ..

لقد اختفت القاعة ..

لم تعد هناك فقاعات شبه كروية ..

أو أشباه أجهزة زئبقية ..

أو جدران سائلة ..

لم يعد هناك أى شىء ..

فقط صخور ، وأحجار ، وأرضية ترابية صخرية ..

تمامًا كما كان عليه ذلك الكهف ..

ومن حوله ، كان رفاقه كلهم فاقدى الوعى ..

أو هكذا بدوا ..

وفى توتر حذر ، نهض (نور) ، يتحسّس تلك الصخور والأحجار المحيطة به ، وكأنه يحاول التيقن مما يراه ..

إنها صخور حقيقية ..

هذا ليس وهمًا ..

ليس وهمًا على الإطلاق ..

مضت لحظة ، حاول فيها أن يستوعب الموقف كله ، ثم أسرع يفحص رفاقه فى توتر بالغ ..

(أكرم) و(رمزى) كانت حالتهما مقبولة ، أما (سلوى) و(نشوى) ، فقد كانت أنفاسهما قصيرة ، ونبضاتهما بطيئة غير منتظمة ، على نحو جعله يهتف فى ارتياع :

ـ رباه ! ماذا يحدث ؟! ماذا يحدث ؟!

مع هتافه ، أدار عينيه إلى الركن ، و...

وانتفض جسده كله ..

فهناك ، كان يستقر هيكلان عظميان ، يرتديان نفس الثياب ، التى كان يرتديها مندوبا هيئة الآثار ، (مكرم) و(ياسر) .. وعلى مقربة منهما ، كانت الدكتورة (نهى) ملقاة أرضًا ، وقد اتسعت عيناها عن آخرهما ، وتغضن جلدها على نحو مخيف ، كما لو أن عمرها قد قفز ثلاثين سنة إلى الأمام دفعة واحدة ..

وكانت تفتقر إلى كل مظاهر الحياة ..

أجساد ثلاثتهم لم تستجب لتلك القفزة ، التى وصفها (محمود) بأنها لارجعية ، عبر الزمان والمكان ..

ولكن الرجلين لقيا مصرعهما على الفور ..

أما هى ، فقد عاش جسدها ، بقفزة واحدة ، وكل تطورات العمر وربما ماتت بالشيخوخة ..

فى لحظة واحدة ..

انتقل بسرعة إلى الدكتور (أنور) ، الذى كان فاقد الوعى بدوره ، إلا أن أنفاسه المنتظمة كانت تشير إلى أنه على ما يرام ..

لذا ، فقد عاد (نور) إلى ابنته وزوجته ، يحاول إنعاشهما وإسعافهما ، وهو يقول بمنتهى التوتر :

ـ ساعدنى يا إلهى ! ساعدنى .

سمع من خلفه سعالاً قويًا ، ميز صوت صاحبه على الفور ، قبل حتى أن يقول (أكرم) فى توتر :

ـ (نور) .. أين نحن ؟!

كان ينهض بدوره ، ويحدق فيما حوله ، بكل توتر الدنيا ، ثم اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يتطلّع إلى ما أصاب الرجلين والمرأة ، وهتف بكل عصبية :

ـ ماذا أصابنا يا (نور) ؟!

أجابه (نور) ، وهو يواصل محاولة إسعاف زوجته وابنته :

ـ إنها قفزة يا صديقى .. قفزة عبر الزمان والمكان .

هتف (أكرم) :

ـ إلى أين ؟!

لم يستطع (نور) إجابته ..

أو لم يحاول هذا ..

فهو نفسه يجهل ، أين أصبحوا !!

كل ما يعرفه ، هو أنهم فى المستقبل ..

مستقبلهم ..

ولكنه لا يدرى متى بالضبط .

ولا أين ..

ندت من (رمزى) حركة ، فى تلك اللحظة ، توحى بأنـه يوشك على استعادة وعيه ، فالتفت إليه (أكرم) ، قائلاً :

ـ هل .. هل الجميع بخير ؟!

أجابه (نور) فى انفعال :

ـ أتعشّم هذا ..

لم يكد ينطقها ، حتى التقطت مسامعهما معًا ، تلك الأصـوات ، التى تقترب من موقعهما ..

كان وقع أقدام عديدة يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وبكل التوتر ، نهض (نور) ، يتطلّع إلى حيث تـأتى الأصوات ، فى حين سحب (أكرم) مسدسه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ماذا هذه المرة ؟!

اقترب وقـع الأقدام أكثر وأكثر ، ثـم راحت بعض الأضـواء تتراقص ، على نحو يوحى بأن أصحاب الأقدام يحملونـها ..

وفجأة ، ظهروا هناك ..

عند أول منحنى ..

وصوّب (أكرم) مسدسه ، هاتفًا :

ـ لو تحرك أحدكم ، فسوف .

قبل أن يتم هتافه ، تألّقت ثياب القادمين ، على نحو ملحوظ ..

كانوا كلهم يرتدون ما يشبه أزياء الفضاء القديمـة ، بنسيجها اللامع ، وتلك الخوذات على الرءوس ..

ولقد تألق الزى ، حتى بهر عينى (نور) و(أكرم) ، فضغط هذا الأخير زناد مسدسه ، صارخًا :

ـ لن تظفروا بى أبدًا .

ضغط زناد مسدسه مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ولكن رصاصاته لم تنطلق ..

أما القادمون ، فقد صوب أحدهم ما يشبه طبق الاستقبال الفضائى نحو الرجلين ..

وانطلقت من ذلك الشىء موجة قوية ..

موجة ضربت (نور) و(أكرم) فى عنف ..

موجة اخترقت جسديهما ..

وعقليهما ..

وكيانهما كله ..

وفى ألم رهيب ، صرخ (نور) :

ـ لماذا ؟! لماذا ؟!

أصابته موجة أخرى ، من ذلك الشىء ، فانتفض جسده بمنتهى العنف .. ثم غاب عن الوعى مرة أخرى ..

غاب تمامًا ..

فى هذه المرة ، كانت الغيبوبة عجيبة ..

عجيبة إلى أقصى حد ..

ففيها ، شعر (نور) أنه يسبح فى فراغ رهيب ..

ولم يحدث أى اتصال ، بينه وبين (محمود) ..

فقط فراغ ..

فراغ بلا حدود ..

ثم راح ذلك الفراغ يقل ..

وينكمش ..

ويتلاشى ..

وعاد (نور) يشعر بما حوله ..

لم يكن قد فتح عينيه بعد ، عندما شعر أنه يرقد على فراش ناعم وثير ، داخل مكان هادئ نظيف ..

وفى بطء حذر ، فتح عينيه ، وتطلّع إلى ما حوله ..

ولقد كان شعوره صحيحًا تمامًا ، بالنسبة إلى المكان ..

وليس بالنسبة إلى الفراش ..

فما يرقد عليه لم يكن فراشًا بالمعنى المعروف ..

بل كان وسادة هوائية ترفعه عن الأرض ، بحيث يبدو وكأنه يحلّق بجسده ، على ارتفاع متر واحد من الأرض ..

ومن حوله ، كانت هناك أجهزة عديدة ..

أجهزة لم ير مثلها قط ..

أجهزة ذات شاشات هولوجرامية ، ثلاثية الأبعاد ، تبدو كلها وكأنها تسبح فى فراغ الحجرة ، وعليها منحنيات مجسمة ، متعددة الأشكال والألوان ..

وعلى جسده ، كانت هناك قطع صغيرة ، تلتصق بموضع صدره ، وجبهته ، وسبّابته اليمنى ..

وكان من الواضح أنها أجهزة قياس شديدة التطوّر ، تنقل كل معدلاته الحيوية لاسلكيًا ، إلى تلك الأجهزة الهولوجرامية الطافية من حوله .. ليس هناك شك إذن ..

إنه المستقبل ..

حجرة عناية مركزة مستقبلية ، فى مستشفى شديد التطوّر ..

هذا هو التفسير الوحيد .

حاول أن ينهض ، إلا أن جسده كان مرهقًا وثقيلاً للغاية ، فغمغم فى توتر :

ـ أريد أن أعرف .

أتاه صوت مألوف ، يقول ، عبر وسيلة اتصال خفية :

ـ ستعرف كل شيء .. المهم الآن أنكم جميعًا بخير .

حاول (نور) أن يتذكّر متى وأين سمع ذلك الصوت المألوف ، وقال محاولاً النهوض مرة أخرى :

ـ أين الباقون ؟!

أجابه الصوت نفسه :

ـ كلهم بخير .. اطمئن ..

قال فى إصرار :

ـ أريد أن أراهم .

بدا الصوت شديد الارتياح ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

ثم انزاح جزء من الجدار المقابل ، وبدا وكأن الصوت يأتى من خلفه ، قائلاً :

ـ لايمكنك أن تتصوُّر مدى سعادتى باستعادتكم ، بعد أن أكد الكل أن هذا مستحيل ! كنت واثقًا من أنكم ستعودون يومًا ما ، ولم أيأس أبدًا .

ضاقت عينا (نور) ، وهو يتطلَّع إلى ذلك الجسد البشرى ، الذى ظهر خلف الجدار المنزاح ، والذى تقدم داخل المكان بابتسامة كبيرة ، قائلاً فى سعادة وارتياح واضحين :

ـ حمدًا لله على سلامتكم يا جدى .

وانتفض جسد (نور) بمنتهى العنف ..

فالآن فقط ، تذكَّر أين ومتى سمع هذا الصوت ..

والآن فقط ، أصبح واثقًا من أنهم قفزوا إلى المستقبل .. وبلا عودة .

* * *

انتهى الجزء الثانى بحمد الله

ويليه الجزء الثالث والأخير بإذن الله

(الكهف)